



فطوف حائنة

محمد قطب

صالح



الجمهورية كتاب

مارس ٢٠٠٩

www.gombook.net.eg



رئيس مجلس الإدارة

محمد أبو الحديد

E-mail: abuelhaded@eltahrir.net

رئيس التحرير

علي هاشم

E-mail: aly_hashem@gitc.com.eg

فطوف دانبة
في الدين والدنيا

محمد قطب

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

دار
الجمهورية
للصحافة

١١١ - ١١٥ ش رمسيس

ت: ٢٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام:
٢٥٧٨١٠١٠ ٢٥٧٨٣٣٣٣
<http://www.eltahrir.net>

مارس ٢٠٠٩



تصميم الغلاف الفنان: صالح صالح

سكرتير التحرير
سيد عبد الحفيظ

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل.س
لبنان	٤٠٠ ل.ل
الأردن	١,٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عُمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جك
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
٦٠ جنيهاً
الدول العربية ٣٠ دولاراً
أمريكا
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكياً
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكياً
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكياً
حقوق النشر محفوظة
لـ (كتاب الجمهورية)

فطوف دانية فى الدين والدنيا

محمد قطب

مقدمة

● نسج العنكبوت نسيجه، فألقى بالظلال، وأسرعت الحمامتان فصنعتا عشاً واستراحتا فيه.. وبدا الغار كما لو كان مكاناً مهجوراً، لا ينبئ عن حياة، ولا يسمح لأدمى بالدخول إليه والرسول صلى الله عليه وسلم يطمئن أبا بكر - صاحبه في الرحلة - قائلاً: لا تحزن إن الله معنا..

وحين سكن الناس قليلاً، وجاءته الراحلة، ارتحل النبي وصاحبه في اتجاه المدينة حتى وصل بعد مشقة كبيرة إلى تخوم المكان، ليجد المسلمين في المدينة ينتظرونه وقد أخذهم الشوق إليه، والرغبة القوية في رؤيته والاستماع إليه.

وعرف أهل المدينة فخرجوا للترحيب بمحمد، وأحاطوا به جميعاً - مسلمين، ويهوداً ومشركين - كما يقول دكتور حسين هيك (وكل يخفق قلبه خفقاناً مختلفاً عن غيره باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم).

وتآخى المسلمون والأنصار فازدادت وحدة المسلمين.

والرسول وهو يبنى المجتمع الإسلامي الجديد.. ويرسى قواعده ويحدد أهدافه، وينشر تعاليمه، ويوحد صفوفه - واجه تجمعات لم تستطع إخفاء عدائها.. فها هو المنافق الكبير عبد الله بن أبي بن سلول الذي استبد به الحقد، جمع حوله أتباعه، وأشاع ما يفسد العلاقة بين محمد وأهل المدينة.. وتجمعات اليهود - بما تملك من مال وحدائق - لم تخف عداها للنبي بعدما عجزت عن استمالته والتأثير فيه، وارتكانه إليهم في مواجهة الجماعات الأخرى.. وقد كانوا يشيعون في خبث - أن الرسول معهم، وأنه جاء مؤازراً، وكانوا يخيفون أهل المدينة بما يشيعونه كذباً.

ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو يسعى إلى إقامة المجتمع الإسلامي الجديد فى بيئته الجديدة، حرص على أن يعاهد الجميع فى كتابه الذى حدد فيه العهود والمواثيق والشروط.. وفى هذه الوثيقة تجلى حرص الرسول على (حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة).. وكانت بهذا المعنى فتحاً فى السياسة والدين معاً.. حتى أضحت المدينة وما حولها حرماً آمناً.

وكان صلى الله عليه وسلم وهو يبنى هذا البناء يعلم أن قريشاً لا تزال على عداؤها القديم.. وأنها تتتهز فرصة مواتية للنيل من الدين.. فقد حز فى نفسها أن ينجو محمد من قبضتها.

وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تجسيد عنصر الإخاء الإنسانى، واعتبر أن إيمان المرء لا يكتمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يصل الإخاء «إلى غاية البر والرحمة»، فيتحقق العدل وتسود المساواة. والدين الذى تحمّل المسلمون فى سبيله كثيراً من الأذى لا يُقر الضعف، ولا يعترف بالاستكانة، بل يفرض على أتباعه العمل على إعلاء شأنه والدفاع عنه عبر حماية النفس والمال وحرية العقيدة وتأمين الوطن / الأمة من غوائل الأعداء.

هذا الوطن الجديد انصهرت فيه العناصر البشرية من الأنصار (الأوس والخزرج) والمهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم.. من أجل العقيدة.. وكشأن المجتمعات ذات السيادة نشأت علاقات بين دولة الإسلام فى المدينة وغيرها من المجتمعات الأخرى والعناصر المختلفة.. كالفئات ذات الطابع الدينى المغاير.

ولقد استمدت تلك العلاقات قوتها ورسوخها من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة مصداقاً لقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن) - كما استمدتها من القاعدة الأساسية فى تكوين الدولة وبقائها وهى قاعدة الدفاع عن العقيدة والوطن.. إذ إن انتهاك ذلك يؤدى إلى مشروعية القتال.

وهذا الامتزاج بين خطى الدولة / العقيدة / والعناصر الحاكمة والمنظمة - يعنى أن الدين الإسلامى له بُعدان أساسيان هما / الدين / والدولة.. وكان

صلى الله عليه وسلم رجل دولة من الطراز الأول فضلاً على نبوته ودعوته إلى الإسلام.

والإسلام دين الفطرة، ومن ثم فهو دين الحق والعدل والنظام.. وهى أسس بناء الدولة. والحروب تدخل في فطرة البشر مادام الدفاع عن النفس والدين والمال والعرض أمراً مشروعاً وفطرياً أيضاً.. وحتى نهذب فكرة الحرب الفطرية - إن صح التعبير - علينا أن نضع لها قوانينها التى تحكمها وهى القوانين التى جاء بها الإسلام إذ أباح الدين الحرب دفاعاً عن القيم حتى يتحقق للبشرية (اتصال تطورها فى سبيل الخير والكمال).. قال صلى الله عليه وسلم إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا.

محمد قطب

رمضان..

مشاهد ومواقف

شهر رمضان .. ومشاهد من الحياة

يهلّ علينا، فتبتهج القلوب، ويغمر الضوء جوانب العتمة في الإنسان والمكان وتتطاير بهجة الأرواح، وترف حتى تكاد تخطف النفس.. ويلوذ الانسان بالنداء الإلهي ويتدثر بمئزر من النور يظل يفيض حتى يسيل ويغمر الروح والجسد.. تتعطش القلوب إليه وترتوى بمجيئه، ولو طال يومه، واشتدّ حرّه.. مَنْ منا ينسى ليلة الرؤية والكل يشخص ببصره إلى السماء، والصّغار يتسلقون الشجر، والأسوار، وقناديل الشموع ولبات الجاز تزيحُ ظلالاً تتراقص ليتسبّد الضوء الخافت الغامر.. أرجاء المساجد، وجنّات الدروب الضيقة، والمفروشة بسعادة مقطرة تنتظرها مرة كل عام..

إنّ شهر رمضان الذي وردَ ذكره في القرآن فتّاه به على غيره من الشهور.. فيه نزل القرآن، وتحدّدت فريضة الصّوم وحدثت فيه أحداث جسام، وكان رمزاً على مجاهدة النفس والصبر على البلاء..

قال تعالى «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان».

وهو أعظم الشهور وأجلّها قيمة ومكانة، وهو - كما ورد عن الرسول - (أوله رحمة وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار).. واكتسب رمضان على مدى التاريخ بُعداً دينياً، فقبل الإسلام كان العرب يقدسون هذا الشهر ويمارسون فيه طقوساً خاصة بالصوم.. وإن تعدّدت أزمنة الصيام وأنواعه حسب الملل

والنحل.. جاء فى القرآن على لسان السيدة مريم «إنى نذرت للرحمن صوما.. فلن أكلم اليوم إنسياً» وهو نوع من الصيام عن الكلام.. الذى يعنى موقفاً من الآخر.

وإذا كان الصوم المرتبط برمضان فيضاً من الفرحة الغامرة.. فإنه لدى بعض الديانات الوثنية القديمة وعند الفراعنة، والمجوس، والبوذيين وغيرهم كان مظهرأ.. للحزن وعلامة.. للحداد على الموتى..

.. هذا الشهر الكريم، المقدس، .. ممَّ جاءتْ التَّسمِيَة.. «رمضان» فى الجزيرة العربية يكون الصيف من أقسى الفصول بحرَّه اللاهب ومياهه الشحيحة.. وبأعشابه الجافة المحترقة.. ولم يكن سوى التمر واللبن غذاء يوحى بنوع من الغنى، وهو سمة على الترف - تقول الرواية: زعم رجل أمام زوجته - قبل أن يدخل بها - أنَّ لديه خيراً وفيراً فى الصيف يقيهما مشقة الحياة فى ظل حرارة كاللهب.. لكن المرأة حين خبرته.. صيفاً.. لم تجد ما زعمه. فشعرتُ بأنه خدعها فأنشدتُ تقول:

وَحَدَّعْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَابِنٌ بِالصَّيْفِ تَامِرٌ

☆☆☆

●● ارتبط اسم رمضان بالصيف - إذن - ارتباطاً وثيقاً، وباحت دلالاته اللغوية بالمعنى.. فقليل إنه من الرَّمْض وهو شدة الحرارة.. وقال ابن دريد: لما نقلوا - أى العرب - أسماء الشُّهور عن اللغة القديمة أسَمَوْها بالأزمنة التى وقعتُ فيها - فوافق رمضان أيام رَمَض الحر وشدَّته فسُمِّي به..

ونظر البعض إلى المعنى الدينى المصاحب له فذهبوا إلى أنه سُمِّي بذلك لأنه يرمض الذنوب ويحرقها بالعمل الصالح. وورد فى القاموس تحت الجذر اللغوى (رمض) معان لغوية ودلالية متنوعة منها أنه ما جاء من «رمضة النصل أرمضه رمضاً» إذا دَقَّقته بين حجرين ليرقَّ. وفيه ما يوحى بالمشقة، وبأنهم كانوا - قبل الإسلام - يفعلون ذلك ليحاربوا بها فى شوال.

والرأى الراجح هو أنه مشتق من الرمضاء - وهى شدة الحرارة التى ترتبط بالصيف اللاهب - فى الجزيرة العربية - ارتباطاً قوياً.

وثمة تأويل دلالى دينى مقبول يتصل بحديث للرسول «من صام رمضان

إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه».. ذلك أن القلوب تتأثر بالعبادة، وبالصوم، وشجَذَ النفس - ودوام التفكير في الآخرة والمراقبة في الفعل والقول.. كما يتأثر الرمل والحجارة من حرّ الشمس.

كان الناس قبل الإسلام يصومون رمضان وهم يحسُّون بالمشقة لأنه كان يأتي في أوج الصيف. ولم يكن يدور مع فصول السنة كما يحدث الآن وكما حدَّده القرآن، لأنهم كانوا يُنسِّئون (يؤخرون) الأشهر الحُرْم إلى ما بعد ذى الحجة، ويبقى رمضان مرتبطاً بالصيف حتى نهاهم القرآن عن ذلك «إنما النسئ زيادة في الكفر» وهكذا خرج صوم رمضان عن نطاق العادة الاضطرارية الموسميّة إلى أن صار عبادةً وركناً من أركان الإسلام، يدور مع الزمان والفصول صيفا أو شتاء، ربيعاً أو خريفاً.

ليلة الرؤية

● يرقب الناس هلال رمضان عند غروب الشمس من اليوم التاسع والعشرين من شعبان فإذا ثبتت الرؤية صاموا، وإلا أتموا شعبان ثلاثين يوماً. قال صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً».

وتُعنى الدول الإسلامية وشعوبها بهلال رمضان، وترصد مطالعه، ويُعتبر هذا اليوم من الأيام المشهودة «فتؤلف المواكب الدينية، وتقام مآذن المساجد وتحفل الإذاعات، وتطلق المدافع، وتعلن البشائر والتهاني وينشط رجال، الوعظ والارشاد».

وكان القادة يصعدون مع القضاة والشهود إلى الأماكن العالية لرصد هلال رمضان، وإعلان بدء الصوم، وذكر السيوطي أن أول من خرج لرؤية الهلال في مصر القاضي غوث الذي توفي عام ١٦٨ هـ.

وارتبط هلال رمضان بنوادر من الشعراء.. فالشعراء الذين يتمسكون بقيم الدين يرحبون به ترحيباً شديداً.. ويفتخرون في وصفه وتجسيمه واعتباره علامة على الخير والبركة واليمن. ... يقول ابن حمد يس الصقلي:

قلتُ والناس يرقبون هلالاً ... يشبه الصبّ من نحافة جسمه

من يكن صائماً هذا رمضان ... حُطَّ بالنور من أوائل اسمه

ولعل الصورة التي وردت تُعطى تشكيلاً فنياً مرتبطاً بالدلالة فـرهافة الهلال تشبه نحافة المحب، كما أخذ حرف الراء الذي هو أول حروف رمضان من شكل الهلال بنوره الألق.

.. وللشعراء مواقف ونوادر تجاه رمضان تشير إلى أنه غير محبب إلى نفوسهم للقيّد الذي يقيدهم به «من صيانة البطن والفرج، وما ينعمون به من مطاعم وملذات».

وهؤلاء الشعراء فنانون متمردون قد غلبتهم طبيعة الفن، والرغبة في التمتع بمظاهر الحياة وأطاييها، وكانوا يتحايلون عليه ويهريون من أمام المتشددین الدينيين حتى لا يقع عليهم لوم أو عقاب.

وكان لأبى نواس - الشاعر العباسي - مواقف شعرية تجاه رمضان، وتنوعت رؤاه، وقدم للشعر العربي قصائد غنية بالصور، وتكشف عن حس ساخر، ومفارقات في الدلالة، والموقف.

وكان أبو نواس ماجناً، يحب شرب الخمر، ويتغنى بالجوارى والقيان، ويجاهر بالمعصية.. لم يهتم بأن يحرم الدين الخمر، أو أن يمنع الصوم معاقبتها.

فكان يحتال على ذلك بالمدارة ويصور حالته وهو سادرٌ في غيّه في صورة خليعة، تشي في المعنى العميق بالخوف اللابد في أعماقه وإن تظاهر باللامبالاة، وتسليح بتمرد الشاعر.

يقول في قصيدة له:

منع الصوم العقارا ... وذوى اللهو ففارا

وبقينا في سجون الصوم للهـم أسارى

غير أنا سन्दارى ... فيه من ليس يُدارى

نتغنى ما اشتهيناه ... من الشعر جهارا

فاسقنى حتى ترانى ... أحسب الديك حمارا ..

ولقد ظل أبو نواس يسخط على رمضان، ناقماً عليه، فهو الذي يقف له

بالمرصاد، ويصكه بالمنع، ويشهر فى وجهه سيف العقاب، ويميت لهوه، ويعطل من مجونه.

يقول:

أَمَاتَ مَجَانَّتَى وَأَبَادَ لَهْوَى ... وَعَطَّلَ رَاحَتَى عَنِ الْمُدَامِ

ومن ثم فإن ترحيبه - كغيره من الشعراء - بهلال شوال ينبئ عن انفكاكه من القيّد وإقدامه على الصّباة والهوى، بل إنه يصوره بعجوز دقّ عظمه ورقّ ولا يستحق غير العزاء.

وقفتُ أعزّيه وقد دقّ عظمه ... وقد حان من شمس النهار شروقُ
وإنى بشهر الصوم إذ بانَ شامتٌ ... وإنّك يا شوال لى لصديقُ

ونفس الشاعر المجبولة على التمرد لا تتخطى دورها، بل تعيه، وتبحث فى داخلها عن السر المكنون الذى فطر عليه الانسان، وهو قربه من الله، الخالق المصور الرحيم الذى يتجاوز عن خطايا عباده لأنه الغفور.. ومن ثم توجه الشاعر إلى ربّه بدعاء شعّرى يذوب رقة وإيمانا.. ولفظا رقيقا يتردد على الألسنة فى جمال أخذ.

لبّيك إن الحمد لك ... والمُلك لا شريك لك

والليلُ لما أن حلَّك ... والسابحات فى الفلك

ما خاب عبدٌ سألَكَ ... أنت له حيثُ سلك

لولاك يا ربُّ هلك..

●● وينظر شعراء العصر الحديث إلى رمضان النظرة الواجبة المتلائمة مع التشريع والمتوافقة مع المقاصد الدينية.. فهو شهر الخير والبركة يشحذ الروح ويرققها فتتخلص من أدْران الدنيا، وتتوجه إلى الله مبتهلة خاشعة.

من هؤلاء الشاعر محمود حسن إسماعيل

يصور الشاعر ترقب الصائم لصوت المؤذن وهو خاشع متذلّ فيقول:

جعلتَ النَّاسَ فى وَقْتِ المَغِيبِ ... عبيدَ نَدَائِكَ العَاتَى الرُّهيبِ

ويطوف الشاعر بصوره الشعرية ويلتقط مشاهد رمضانية تعجّ بالنور، والحياة، ويصف المأذن بأنها حُوريّات تَضُوع منها رائحة المسك، وتتألأأ جنباتها بالنور:

تلفت المأذن حالمات كحُوريات خلد سافرات
تضوع مباخر النساك منها فتحسبها غصوناً عاطرات
تلاً حولها أطواق نور مضيئات بحبك هائمات
كانك حامل وحيأ إليها وقفن بسحره متلفات

ولعلنا نلاحظ علي «أحمد شوقي» تقارباً مع الشعراء المتمردين، الحانقين على رمضان لما يمثل لهم من موانع قامعة لرغباتهم وأهوائهم لكنه لا يجاهر مثلما فعلوا، ولكنه يعبر عن المعنى الذي يريده - وهو الشماتة فيه - بأدب وبخوف من الله ..

رمضان ولئ هاتها يا ساقى ... مُشتاقَةٌ تسمى إلى مشتاق
ما كان أكثره على آلافها ... وأقله في طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها ... إن كان ثم من الذنوب بواقى

ولا يفوتنا أن نذكر بيتاً «لابن الرومي» يهجو فيه شهر رمضان، لطوله وثقله ولأنه يحرمه من ملذاته، وشهواته .. وهو نوع من التمرد كما قلت.

شهر الصيام وإن عظمت حرمة شهر طويل ثقيل الظل والحركة

●● وشهر رمضان يحفل بالولائم والموائد الملأى بأطياب الطعام وأصبح الأمر كأنه ارتباط شرطي، وهو سلوك يخالف الهدف من الصيام الداعي إلى تربية الإرادة والسمو بالروح الإنسانية وتطهيرها من أدران الدنيا وزخارفها. و«الحلواء» الرمضانية لها شهرتها التي لا ينكرها أحد، وما من أحد إلا ويقبل عليها ويشتهيها، وهي علمياً أمر مطلوب لنقصان السكر لدى الصائم .. لكن الشراهة في أكلها تجلب الضرر.

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يفطر على الرطب، أو على التمر .. وقد سأل عبد الله بن عباس: أى الشراب أفضل؟ فقال الحلوى البارد أى العسل.

وكانوا يعتقدون أن الصائم حين يتناول «الحلواء» فإنها تساعد على استعادة القوة، واسترداد الحيوية .. يقول وهب بن منبه: إذا صام الرجل زاع بصره، فإذا أفطر على الحلوى رجع إليه بصره.

ومن أشهر أنواع الحلواء الكنافة والقطائف.. وهى من الأطعمة الرائجة فى البلاد العربية، وتنتشر صناعتها انتشاراً واسعاً.

●● ولقد جعل الفاطميون من شهر رمضان موسماً للخير والعطاء، وتنافس الشعراء فى الحديث عن مباحج رمضان وخيراته.. وتحدثوا عن أنواع الحلوى التى ابتدعها الفاطميون، واعتبروا ذلك نوعاً من الحفاوة بـرمضان حتى أصبح الأمر كالعادة لمن جاء بعدهم.

يقول «أبو الحسين الجزار المصرى» وهو شاعر مملوكى.. واصفاً الكنافة:

سقى الله أكفاف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكر دائم الدر

وتباً لأوقات المخلل إنها

تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

والقطر هو: العسل.

ويقول أيضاً:

تالله ما لثُمُ المراشف.. كلاً ولا ضمُ المعاطف

بالذُّ وقعاً فى حشأى من الكنافة والقطائف

ولقد بلغ من شهرة الكنافة والقطائف أن «جلال الدين السيوطى» جمع ما قيل فيها فى كتاب سماه «منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف».. والقطائف أخذت مساحة عريضة من اهتمام الشعراء ووصف حبهم لها.

قال «زين القضاة السكندرى»:

لله درُّ قطائف محشوة من فسق رعت النواظر واليدا

شبهتها لما بدت فى صحنها بحقاق عاج قد حُشين زبرجدا

ويقول «ابن نباتة»:

أقول وقد جاء الغلام بصحنه

عقيب طعام الفطر يا غاية المنى

بعيشك قل لى.. جاء صحن قطائف

وئح باسم من أهوى ودعنى من الكنا

ويقول أيضاً وهو يقبل على القطائف التى تذوب فى فمه حلاوة، ويسيل
العسل من جنباتها، داعياً الله سبحانه أن تدوم نعمة القطائف ولا تنقطع.
أمد لها كفى فاهتز فرحة «كما انتفض العصفور بالله القطر»

والتضمين الذى أتى به ابن نباتة يصور حالته خير تصوير ويصف الفرحة
الغامرة التى شملته وجعلته ينتفض لمراى القطائف بحال العصفور الذى بلله
المطر.

وفى مجال التفكه والنادرة يُروى أن هارون الرشيد وزبيدة أم جعفر
اختلفا فيهما. أيهما أطيب. فاحتكما إلى القاضى أبو يوسف.. فقال: يا
أمير المؤمنين.. لا يُحْكَمُ بين غائبين إذا حضر الخصمان حكمت بينهما.
فأتى إليه بطبق من كل منهما فجعل يأكل من هذا لقمة ومن ذاك لقمة
حتى أتى عليهما. فقال الرشيد: احكم بينهما فقال: والله يا أمير المؤمنين
كلما أردت أن أقضى لأحدهما جاء الآخر بحجته. فضحك وأمر له بألف
دينار.



●● ازدهى شهر رمضان ببعض الفنون التى ارتبطت به، واعتبرت علامة
عليه حيث تلوح بادية وبكثرة لتعطى للياليه البهجة وتؤنس بأنوارها المزارات
والبيوت والأسبله.

فى القرى - قديماً - كنا ننتظر رمضان على أضواء الفوانيس وبداخلها
الشموع أو شرائط الجاز، وكنا نغالب النوم إلى أن يهل المسجراتى بطبلته
ذات الإيقاع الذى تميزه الأذن.. وبأدائه الصوتى الجميل، الموقع.. ولا ننسى
اللحظات التى يقف فيها عند انحناءات النوافذ والأبواب مخاطباً أهل الدار
بأسمائهم وداعياً إياهم إلى النهوض. ونجرب ومعنا الفانوس الصغير، وبعض
من الحلوى نقدمها له.. ثم نطوف معه فى الحارة ونعود.. ونحن نردد «اصح
يانايم، وحدّ الدايم».

وكان المسجراتى فى هزيع الليل يلون فى الأداء والصوت علّه يوقظ
النائمى. ولقد ورد عن الرسول ما يدل على أهمية السحور استعداداً لصوم

يوم جديد، قال - صلى الله عليه وسلم - «تسحروا فإن في التسحر بركة». واشتهر كثيرون ممن قاموا بالتسحير لحسن أدائهم وجمال صوتهم وتنوع محفوظاتهم.

وتنوعت وسائل التسحير، فأهل مصر - كما يقول مصطفى عبدالرحمن - أول من سحرَّ بالطبلة، وأهل الاسكندرية كانوا يسحرون بدق الأبواب، أما أهل الشام فكانوا يسحرون بالعزف على الآلات. ومن الذين اشتهروا بكتابة شعر التَّسْحِير بـيرم التونسي. يقول

سبحان من خلَّى الأهله تدور
ياصايمين لاحت نجوم السحور
على السحور ياللا قبل الأوان ياللا
صوموا بأمر الله
والأجر عند الله

وكان المسحراتى ينشد المواعظ، ويمر على البيوت ذاكراً أسماء الأفراد ويحييهم

أحياكم المولى إلى كل عام وكل عام وأنتم بخير وطيبين

ويغلب على الظن أن التسحير أضحي مهنة للبعض يتكسبون منها لقاء ما يقدمه أهل البر من خيرات ومكرمات.. وكان المسحراتى فى أواخر رمضان يقوم بترديد عبارات التوحيش فى صوت يفيض بالأسى والحزن على انقضاء الشهر الفضيل الذى قام المسلمون بأداء فريضة الصيام فيه، واحتفوا به، واحتفلوا بلياليه وطقوسه أياماً وليالى أدخلت على نفوسهم البهجة والسعادة.

لا أوحش الله منك يا شهر الصيام

لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود

وكان للمهنة أصولها المرعية، فالمسحراتى يطوف بالأزقة والطرقات ومعه طبلة صغيرة يضرب عليها بقطعة من الجلد ثلاث ضربات متتاليات تتخلل ما يردده من نداءات.

والمسحراتى كان يتحاشى ذكر أسماء النساء، وأحياناً كان يذكر أسماء البنات الأكار إذا ما وافق الأهل، وهو نوع من الإعلان مدفوع الأجر عن بنات فى سن الزواج.. وكأنه يؤدى - بطريقة ما - دوراً من أدوار الخاطبة.

ولقد استهوى فن التسخير شعراء العامية، ولعل من أشهرهم الشاعر فؤاد حداد الذى كتب فى هذا المجال أشعاراً لا تنسى.

ولقد غلب الرجال على فن التسخير واحتكروا حرفته، إلا أنه ورد أن هناك من النساء الفاتات من قمن بهذه المهنة، ولاقت بعضاً من التهكم والغزل معاً. قال شاعر راح يتغزل فى إحداهن واصفاً إياها بالشمس التى تسطع فى وقت السحور:

عجبت فى رمضان من مُسحرة
قالت ولكها فى قولها ابتدعت
تسحروا يا عباد الله قلت لها
كيف السحور وهذى الشمس قد طلعت

☆☆☆

●● وارتبط الفانوس بشهر رمضان وأضحى من ظواهره الثابتة التى تتطور عاماً بعد عام من الجديد الذى يطرأ على طرائق التشكيل حتى أضحت فناً إسلامياً خالصاً يزدهى بألوان من الزخرفة وفن الخطوط وصور الكائنات.

ودخل الزجاج فى أساسيات الفوانيس والمشكاوات وابتدعت أشكال فنية تتعامل مع الخامة والخط واللون فى تصميم جمالى له قيمه الفنية. والفانوس «يقى مصدر الضوء من الريح والمطر».. وتطور حتى أصبح اليوم يوقد بالحجارة أو الكهرباء مباشرة.

ولقد عرف المصريون فانوس رمضان يوم دخول «المعز لدين الله الفاطمى» القاهرة فى الخامس من رمضان عام ٣٥٨هـ حيث استقبله أهل القاهرة ليلاً فى موكب كبير حاملين المشاعل والفوانيس».

ولقد استُخدم فى الزيارات، وإضاءة المساجد ثم أصبح ملتصقاً برمضان ومازال من أمتع اللعب التى تدخل البهجة إلى قلوب الأطفال.

وفى زيارة للأزهر - مثلاً - سيواجه الزائر بألوان من الفوانيس افتنَّ صانعوها افتتاناً بديعاً، حتى إذا طافت العين بالمحلات، والدروب رأت من الأنواع ما يخلب اللب جمالاً وتصميماً سواء كان صغيراً أو كان كبيراً شامخاً يحيل العتمة إلى ضياء كأنه النهار.

والذين يمتون بصلة إلى الريف ويترددون عليه يدركون أهمية الفانوس فى رمضان، ويرونه فى كل مكان فى المساجد، والأضرحة، والبيوت وأمام الأبواب، ويتذكرون الأطفال وهم يخرجون بفوانيسهم يجوبون الحواري والدروب يرددون أهازيج رمضان وينتظرون مجيء المسحراتى.

قال شاعر يصف الفانوس الذى كان سمة على جامع عمرو بن العاص والذى أحال الظلام نوراً، وبدا من نوره كأنه كوكب.

أرى علماً للناس فى الصوم يُنصب
على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
وها هو فى الظلماء يبدو كأنه
على رمح زنجى سنانٌ مذهب
وما الليل إلا قانص لغزالة
بفانوس نار نحوها يتطَلَّب
ولم أر صياداً على البعد قبله
إذا قرئت منه الغزالة يهرب

☆☆☆

●● ولقد حفل شهر رمضان بالنوادر والحكايات التى تكشف عن طبائع النفوس وميلها إلى التحرر من القيود التى تمنعها من حرية التصرف، وتوضح العلاقة بين الراعى والرعية من حيث التواصل بينهما ومكاشفة النفس لما يعتورها من أخلاط ووساوس.. والحكايات تعتمد على الوصف السردى القليل الذى يهيب للحدث، والحوار القصير الذى يكون التساؤل أحد أهم طرائقه التعبيرية ثم التضمين الشعرى الذى يستقطر الموقف والدلالة فى تعبير موجٍ وجميل.

●● دخل رجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

فقال: يا رسول الله هلكتُ.

قال رسول الله: مالك!

قال: وقعت على امرأتى فى رمضان وأنا صائم.

قال رسول الله: هل تجد رقبة تعتقها؟

قال: لا.

قال رسول الله: هل تستطيع أن تصوم شهرين؟

قال: لا.

قال رسول الله: فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟

قال: لا.

ومكثا عند النبى وبينما نحن على ذلك أتى النبى بتمر وقال:

أين السائل؟

فقال: أنا.

قال رسول الله: خذ هذا فتصدق به.

قال الرجل: أَعَلَى أَفقر منى يا رسول الله. فوالله لا بيت أفقر من بيتى.

فضحك النبى حتى بدت نواجذه ثم قال: أطعمه أهلك.

والنوادير ترصد لنا المفارقات التى تحدث بين البشر، وتبين عن قدر من السخرية، وتجلب الضحك والمزاح، وهى أيضاً وسيلة للتعبير عما يجيش بالنفوس من حالات التناقض بين الفقر والغنى، وتصوير للبيئة التى ينتمى إليها الإنسان محور النادرة.

وفى نادرة حدثت بين عمر بن عبدالعزيز وأعرابى سجلها مصطفى عبدالرحمن الشاعر المتميز وكاتب الأغنية الشهير فى كتابه «فتون رمضان» نقف على فن الحوار الذى يحدث بين أمير المؤمنين وبين أعرابى يعيش فى بيئة مغايرة لبيئة الخلافة، تتصف بالقسوة، وشظف العيش.

تقول النادرة إن عمر بن عبدالعزيز رأى أعرابياً وهو يصلى.. يأكل بجانب قبر الرسول، فدنا منه.

وقال له: أَمْرِيضُ أَنْتَ؟

قال: لا.

قال: أَعْلَى سَفَرُ؟

قال: لا.

قال: فَمَا بِالْكَ مَفْطَرٍ وَالنَّاسِ صَائِمُونَ؟

قال الأعرابي: إِنَّكُمْ تَجِدُونَ الطَّعَامَ فَتَصُومُونَ وَأَنَا إِنْ وَجَدْتَهُ لَا أَدْعُهُ يَفْلَتَ مِنِّي.

ثم أَنشَدَ قَائِلًا:

مَاذَا تَقُولُ لِبَائِسٍ مَتَوَحِّدٍ	كَالْوَعْلِ فِي شَعْبِ الْجِبَالِ يَقِيمُ
يَصْطَادُ أَفْرَاحَ الْقَطَا لَطْعَامَهُ	وَيَنْوِي أَنْضَاءَ الْهَمْومِ جُثُومَ
وَالْقَوْمِ صَامُوا الشَّهْرَ عِنْدَ حُلُولِهِ	لَكَهْ طَوْلَ الْحَيَاةِ يَصُومُ

واقطع أبياتاً من شعر الشاعر الزجال الشهير حسين شفيق المصرى أختم بها النوادر لما يتسم به الشعر بالروح المصرية الخالصة التى تتمثل فى مفردات اللغة، والجو العام الموصوف، والعامية اللاصقة بالمصرى بما تحمله من خفة المزاج وشفافية النفس.

يقول:

أَظُنُّ الْوَلِيَّةَ زَعْلَانَةً	وَمَا كُنْتُ أَقْصِدُ إِزْعَالَهَا
أَتَى رَمْضَانَ فَقَالَتْ هَاتُولِي	زَكِيَّةَ نَقْلِ فَجَبْنَا لَهَا
وَمِنْ قَمَرِ الدِّينِ جَبْنَا ثَلَاثَ	لَفَاتٍ تَتَعَبُ شَيْئَالَهَا
وَجَبْتُ صَفِيحَةَ سَمْنٍ وَجَبْتُ	لِوَاظِمَ مَا غَيْرَهَا طَالَهَا
فَقُلْ لِي عَلَى إِيهِ بَنَتْ الَّذِينَ	بِتَشْكِي إِلَى أَهْلِهَا حَالَهَا

وتشير الأبيات إلى العادات التي تصاحب رمضان، كالإقبال على شراء المكسرات - النقل - من جوز ولوز وبندق وفستق وغيرها وكذلك قمر الدين الذي يصنع من ثمار المشمش، واكتسب شهرة عريضة حتى بات من أحب الحلوى والمشروبات في رمضان.

حدث فى رمضان

غزوة بدر الكبرى

فى تاريخ الأمم أيام حاسمة، تصنع أمجادها، وتسطر تاريخها المجيد. والأمم العظيمة هى تلك الأمم التى تحتفى بتاريخها، وبأيامها، ذلك أن الأمة هى التاريخ، الذى هو ذاكرة الشعوب وسجلها المشهود. والأمة الإسلامية شأنها شأن أمم الأرض جميعاً، خاضت معاركها ضد الوثنية والضلال، وصنعت أمجادها بقوة العقيدة، وسطرت فى سجل التاريخ أعظم الصفحات. وإذا كانت فى تاريخ الشعوب مواقف حاسمة تتبدل فيها الأحوال وتتغير، وتنتقل بها من طور إلى طور، ومن تاريخ إلى تاريخ، فإن الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تتسى هذا الموقف التاريخى العظيم، الذى قلب ميزان القوة، وبنى الدولة الإسلامية الجديدة، وكان نقطة انطلاق كبرى إلى تأسيس الدولة الإسلامية وانتصار الإسلام.. ودحر الكفر وأهله.. هذا الموقف التاريخى العظيم يتمثل فى وضوح وجلاء فى غزوة بدر الكبرى. تلك الغزوة الحاسمة التى انتصرت فيها العقيدة السليمة على العقيدة الفاسدة فكانت العقيدة وحدها هى السلاح الأول والأخير للمنتصرين^(١).. ولا يسعنا فى هذا المقام إلا أن نقف وقفة أمام هذا اليوم التاريخى العظيم، نتابع أحداثه، ونستشف منه المغزى والمعنى والمثل الأعلى.

١- غزوة بدر الكبرى، مقدمة ص ٧ - محمد أحمد باشاميل.

قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فترة الدعوة في مكة في جهاد مع الوثنية والكفر، ولقد لقي المسلمون العنت، فطوردوا وعذبوا، وأخرجوا من ديارهم. وكان جهاد الرسول في هذه الفترة جهاداً لم يُشهر فيه سلاح، ولم يقاتل فيه أحداً إنما كان هو البلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة، إنه الجهاد السلمى في سبيل تغيير عقيدة الوثنية المترسبة في نفوس العرب المشركين.. وعجزت قريش كل العجز في إيقاف تيار الدعوة فتبیت الأمر على قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينجو رسول الله من تلك المؤامرة، ويدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة مهاجراً بعد أن سبقه المسلمون إليها.. ويؤاخي الرسول بين المهاجرين والأنصار وكانت أول مسألة «اهتم بها النبي - صلى الله عليه وسلم - بمجرد وصوله إلى يثرب، هي التفكير في بناء المجتمع الجديد ليقوم كما أراد الله له أن يقوم»^(١).. ولا شك أن الحياة في المدينة كانت أكثر تعقيداً.. وذلك للحروب والعصبيات القبلية التي كانت سائدة، فضلاً على وجود اليهود وهم عنصر يثير الفتن دائماً حيثما وجدوا وحلوا. فالقضايا التي سيواجهها الرسول - صلى الله عليه وسلم - أكثر تنوعاً لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة، لا يتغلب عليها ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله.. الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطأ ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) واستقر الإسلام بالمدينة وأدركت قريش أن الإسلام في نمو وازدهار، فبيتوا العداوة والمحاربة ولكن الله سبحانه يأمر المسلمين بالصبر والصفح إلى أن قويت شوكتهم واشتد جانبهم، وأصبحوا قوة، عندئذ أذن الله لهم بالقتال. قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣)..

١- غزوة بدر الكبرى، ص ٩١.

٢- السيرة النبوية - أبو الحسن الندوي ص ١٥٠.

٣- سورة الانفال: الآيات ٦٢ و ٦٣.

٤- الحج آية ٣٩.

وبَدَرَ مدار الحديث هنا هو ماء من مياه العرب الشهيرة وأسواقهم المشهورة. وقد أطلق على هذا المكان اسم أول من حفر بئراً فيه واسمه بدر بن قريش^(١) وتقع بدر جنوب غرب المدينة، وهى قريبة من ساحل البحر الأحمر. أما من حيث الزمان فقد وقعت المعركة فى رمضان فى السنة الثانية من الهجرة.. وكانت تلك المعركة فاتحة خير وبركة على المسلمين، وهى اليوم الذى ذكره القرآن بصفة «يوم الفرقان» حيث فرق الله به بين الحق والباطل وفيه وبه بدأ الكفاح الحقيقى ضد الوثنية والكفر، وخاض المسلمون حربهم فى قوة وثبات جأش.

ويبدأ سير الأحداث فى خط مستمر حتى تقع الواقعة الفاصلة.. فلقد علم المسلمون بخبر أبى سفيان وقد خرج من مكة إلى الشام فى تجارة كبيرة وكانت قريش تحارب المسلمين وتصد عن سبيل الله وتقيم الصعوبات فى طريق المسلمين ولما سمع الرسول بأمر القافلة خرج من المدينة فى مائتى مقاتل لاعتراضها.. فلقد خرج المسلمون مهاجرين وقد تركوا ما يملكون فى سبيل عقيدتهم وقد أخذت قريش هذه الأموال وآن للمسلمين أن يعوضوا ما فاتهم، وها هى قافلة أبى سفيان تحمل بضائع قريش وفيها أموال أثريائهم وكبرائهم الذين سطوا على أموال المسلمين، فرأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتعرض لها^(٢).

وبلغ أباسفيان خبر خروج الرسول وصحبه فاستصرخ قريشاً. وبلغ الخبر قريشاً فتهضوا مسرعين ولم يتخلف من أشرافهم أحد، وحشدوا القبائل والبطون وجاءوا يحملهم الغضب وتدفعهم العداوة للنيل من المسلمين.

وبلغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - خروج قريش لمحاربة المسلمين، فجمع الصحابة واستشارهم فى الأمر.. وكانت رغبة الرسول قوية فى الاشتباك مع جيش مكة فى بدر ولكنه وبالرغم من أنه النبى المرسل والقائد الأعلى قرر ألا ينفرد بالقول الفصل فأرسل بذلك المبدأ الإسلامى الأصيل وهو مبدأ الشورى.. وتبادل الرسول مع أصحابه الرأى والمشورة، وعن المقدم أنه قال للرسول يوم بدر إن قريشاً قصدت بدرأ وأن أباسفيان نجا بمن معه،

١- غزوة بدر الكبرى ص ١٧.

٢- التاريخ الإسلامى ج ٢ - محمود شاكر، ص ١٨٨.

وطلب منه أن يستشير الناس فاستشار الرسول أصحابه.. فقام أبوبكر فقال وأحسن ثم قام عمر فقال كذلك ثم المقدام فقال: «والذى بعثك بالحق لو سلكت بنا برك الغماد لجاهدنا معك من دونه»^(١).. وقال سعد بن معاذ من الأنصار: امض يا رسول الله لما أمرت به فنحن معك، وسُر رسول الله بما سمع فقال لهم: «سيروا وأبشروا».

وخرج رسول الله فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وراية المجاهدين إلى على بن أبى طالب وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ. وكانت قريش بين ألف وزيادة منهم صناديد قريش وساداتها وفرسانها وأبطالها فقال رسول الله لجماعة المسلمين: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»^(٢) وروى عن البيهقى: «خرج رسول الله يوم بدر ومعه ثلاثمائة وخمسة عشرًا وكان المشركون ألفاً»^(٣).

ومضت قريش فنزلت بجانب الوادى ونزل المسلمون بجانب بدر. وكان الحباب بن المنذر عليماً بالمكان فقال: يا رسول الله. أرايت هذا المنزل! أمنزلاً أنزلكه الله.. فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ وقال محمد: بل هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال الحباب فلنأت إلى أدنى الماء ونبنى حوضاً نملؤه بالماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.. وحين رأى الرسول صواب الرأى، اتبع رأيه معلناً إلى قومه أنه بشر مثلهم وأن الرأى شورى وأنه فى حاجة إلى حسن المشورة وصدق النية^(٤).

وتجلت عبقرية الرسول فى قيادته للجيش وتعبئته الحكيمة وسده لمتنافذ الخطر والهجوم. والتقى الجمعان وأريد جو المعركة بدخان الموت وأخذت الصفوف تقترب. وكان رسول الله يقدر نتائج المعركة ويعرف أن هزيمة المسلمين معناها هزيمة الإسلام وخاصة أن كفة الفئتين مختلفتان وغير متكافئتين، فهتف بربه عز وجل مناشداً النصر والتأييد قائلاً فى تضرع «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض»^(٥).

١- فتح البارى مجلد ٧، ص ٢٨٧ أحمد بن على بن حجر العسقلانى.

٢- السيرة النبوية، ص ١٧١.

٣- فتح البارى - مجلد ٧، ص ٢٩٢.

٤- حياة محمد - محمد حسين هيكل، ص ٢٧٤.

٥- فتح البارى - مجلد ٧، ص ٢٨٦.

والتحم الفريقان، وظل الرسول يحرض المسلمين ويدفعهم إلى مقاتلة الأعداء. ووجه المسلمون همهم إلى سادات قريش فقتل بلال أمية بن خلف، واشتدت المعركة وثار النقع وخاض حمزة وعلى وأبطال المسلمين وطيس المعركة وقد نسي كل منهم قلة أصحابه وكثرة عدوه، وطارت رعوس الكفار وأمد الله المسلمين بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم تثبيتاً وإيماناً، ويقف رسول الله وسط المعركة ويأخذ حفنة من الحصباء ويرميها في وجوه قريش قائلاً: شأهت الوجوه.. وصاح في المسلمين شدوا على الأعداء.. ولقد كانت تلك النفحة الإلهية سراً معنوياً كبيراً ألهب الحماس.

ولقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (١)

وبعد قتال مرير ظهرت علامات الاضطراب في صفوف المشركين وأخذت الصفوف تتهدم أمام هجمات المسلمين القوية.. وتقترب المعركة من نهايتها فيفر المشركون وينتصر المسلمون على أعدائهم فيأسرون ويقتلون ويغنمون.. وبعد أن جمع المسلمون الأسلاب والغنائم ووضعوا الأسرى في القيود أمر الرسول بنقل جثث المشركين وطرحها في قلب مهجور.

عن أنس بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فخذفوا في طوى من أطواء بدر خبث مخبث وكان يناديهم بأسمائهم قائلاً: إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ (٢)

ولقد تجلت في معركة بدر مواقف رائعة برزت فيها قوة العقيدة والثبات على المبدأ، فقد قاتل الابن أباه والأخ أخاه ولم يكن يتسيد الموقف كله إلا قوة العقيدة والجهاد في سبيل الله، ونجح المسلمون في تحقيق الأخوة الإسلامية الصحيحة «فكانت فوق القرابة والأرحام وفوق كل ما يمت بصلة غير صلة العقيدة» (٣)

●● إن معركة بدر تشير في وضوح إلى أن الفئة المؤمنة إذا استقامت على الطريق وأخذت بأسباب النصر يأتيها نصر الله حتماً، دون النظر إلى العدد

١٣- سورة الأنفال: الآية ١٧.

١٤- الجامع الصحيح - البخارى ص ٨ - مجلد ٥/٤.

١٥- التاريخ الإسلامى ص ٢٠٤.

أو العدة. وكانت بدر أول معركة حقيقية في الإسلام وكانت الإشارة الخالدة إلى هذا المعنى العظيم، والذي أوضحته الآية القرآنية الكريمة: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)

وساق رسول الله الأسرى أمامه تجاه المدينة وكان قد مات من المسلمين أربعة عشر شهيداً في المعركة، ووزعت الغنائم على المسلمين.. واستشار الرسول صحبه في أمر الأسرى وارتأى أبو بكر أن يستبقى الرسول الأسرى ويأخذ الفداء منهم على حين رأى عمر أن يقتل الأسرى «حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين» وأخذ الرسول برأى أبى بكر وقبل الفداء وكان يفادى بهم على قدر أموالهم.

وكان من الأسرى من لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة^(٢) وهذا تقدير واضح من الرسول للعلم والقراءة والكتابة كمفتاح للتقدم والحضارة. ولقد عاتب القرآن الرسول في هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ ۚ لَوْ أُسْرِيَ حَتَّىٰ يَشْخِمْ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣)

لقد غيرت معركة بدر موازين القوى في الجزيرة العربية وقفزت بالمسلمين إلى الذروة وجعلتهم السادة بعد أن كانوا مستضعفين. لقد كانت المعركة موقعة بين الحق والباطل أرادها الله سبحانه ليحق الحق ويبطل الباطل وترتفع راية الإسلام خفاقة عالية. إنها قصة النصر الحاسم دخلت إلى التاريخ لتقرر دستور النصر والهزيمة وتكشف الأسباب الحقيقية للنصر من أن قوة العقيدة وثبات المبدأ مفتاح النصر والفوز.. وتبرز تلك المعركة أن المسلمين يبنون ولا يهدمون حين يعتبرون العلم فريضة، وحين يكون الفداء تعليماً وقراءة وكتابة.

لقد كان انتصار المسلمين في بدر إيذاناً بمولد دولة الإسلام كقوة أشاعت في العالم كله الخير والصلاح و الحضارة والنور أزماناً طويلة.

١- البقرة ٢٤٩.

٢- السيرة النبوية، ص ١٧٩.

٣- الأنفال ٦٧.

وعلىنا نحن المسلمين أن نتخذ من أيامنا عبرة ومثلاً، ومن تاريخنا منارة تضيء لنا حالك الأيام، وأن نستقرئ تاريخنا لنذكر ما فيه من قيم ومفاهيم، وأحكام وتشريع يرسى قواعد البناء على أساس مكين.. والخلاص مما يكتنف المسلمين من تحزب وضعف هو العودة إلى هذه المواقف الإسلامية ففيها الإضاءة ومنها النبع الهادي إلى سواء السبيل.

عيد الفطر رمزٌ للنهضة الروحية والإنسانية

الأعياد البشرية إنما هي من سنن الفطرة التي جبلت النفوس عليها.. فهي فرصة سانحة للترفيه عن النفس والتمكين من تحقيق الحرية الذاتية أو الاجتماعية.. إنها وقت مقتطع للفرحة من مشاغل الحياة ومعتراكاتها الجادة.

وإننا نلاحظ أن بعض الأمم تمارس أعيادها في لهو وصخب، وشراب وطرب، متخذة أعيادها وسيلة إلى إشباع الرغبات، ونشر الإباحية الأخلاقية المستهترة.. وإن بعض المعتقدات الدينية القديمة أيام الجاهلية اتخذت أياماً لها هي الأعياد.. تتلاءم مع وثنياتها وضلالها فتطلق العنان للغرائز فيتحرر الإنسان من قيود الشرف والغيرة، وينساق مع حيوانيته في تبذل وفحش وُبُعد عن العفة والحياء.

والإسلام يلقي على الأعياد ضوءاً جديداً، انطلاقاً من الموازين العادلة والمعايير الدقيقة.. فيبتعد بها عن انحلال الوثنية وضلالها.. ويرسم لها صورة حية جميلة في إطار من الطهر والعفة والكرامة.

فالأعياد الإسلامية ذات صبغة روحية متوثبة، يتصاعد فيها نشيد الحمد والشكر على ألسنة المسلمين في البيوت والمساجد، والطرقات، وأماكن الحج.. وأقطار المشرق والمغرب.. ابتهاجاً باتمام واجب إسلامي عظيم يتمثل

فى الصوم .. أو الحج .. ويصبح العيد الإسلامى من هذا المنطلق الروحى انتصاراً لإرادة المسلم وقوة إيمانه وتحقيقاً متكاملًا للتكليف الذى أنيط به وتصميمًا على متابعة هذا الانتصار الروحى العظيم الذى يجب أن يتجلى فى كل مناحى الحياة عملاً وسلوكاً ومبدأً .

ويتلاءم مع هذا الفرح الروحى فرح مادى جمالى يتناسقان معاً فيصنعان بهجة المسلم فى عيده . والإسلام يطالبنا بإبراز هذا المظهر الجمالى فى مظاهر الزينة المختلفة وفى جو من المتعة والسرور فى غير إسراف يشوه جماله وكماله .. ولقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم الانتصار على فكرة التمتع بالعيد، تمشيًا مع سنن الفطرة فأباح اتخاذ العيد تحصيلًا لمزاياه الدينية والاجتماعية والنفسية .. وألقى يومى الجاهلية اللذين كانا عيداً يمارسون فيهما اللهو والطرب والمجون .. وعين لهما صلى الله عليه وسلم يومين عظيمين يرتبطان بشعائر الإسلام وأركانه وهما يوما الفطر والأضحى .

(عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا كنا نلعب فيهما فى الجاهلية. فقال: قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر ..).

ولقد رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن يمارسوا وسائل البهجة والمتعة دون إسراف أو غلو .. فيدعو إلى ممارسة ألوان من الرياضة كالرماية .. والعدو وركوب الخيل .. بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستكر الغناء والطرب العفيف ما دام ينطلق من نية روحية صافية، تؤكد على القيم النبيلة بلا تبذل أو فحش أو ترخص فى القول .. إيماناً بأن النفس البشرية قد تميل إلى الإيقاع والتغيم وتخفيفاً عن الهموم وضغوط النفس .

عن عائشة رضى الله عنها قالت (دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم عيد وعندى جاريتان تغنيان . فلم يقل شيئاً، ولكنه اضطجع على الفراش وحوّل وجهه . ثم دخل أبوبكر فانتهرنى وقال: أبزمارة الشيطان فى بيت رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: دعها يا أبابكر إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا) .. ويوم الفطر أحد العيدين الإسلاميين الكريمين .

وعيد الفطر المبارك إنما هو تذكير بالنعمة العظمى التى هى أساس لبناء دولة إنسانية موحدة يسودها الصفاء الروحى واستقامة الوجدان، وإقامة العدل. وهو من الناحية الزمنية يأتى بعد شهر رمضان الذى هو تربية لارادة المسلم وتدريب له على التقشف والحرمان والصبر ودعوة إلى التآزر الاجتماعى والخلوص الكامل لعبادة الله.

فى هذا اليوم العظيم يعود المسلم إلى حريته الشخصية فى المأكل والمشرب بعد أن سلمها لله طائعاً مختاراً ليقوم بواجبه الدينى وهو الصوم.. يعود المسلم إلى الاستمتاع الحلال بحريته الطبيعية بعد رحلة المكابدة الجميلة فى رمضان.. إن القيام بالواجب الدينى والإيمان بحسن الجزاء عليه عاملان قويان فى سعادة الفرد والمجتمع. ففى القيام بالواجب طمأنينة للنفس وراحة للضمير وانسراح للصدر وإدراك للسمو الروحى الذى يجعل الخير كله فى البذل والعطاء.. وعيد الفطر هو اليوم الذى يعود فيه الصائم المسلم من رحلة روحية ترك فيها طائعاً مختاراً كل رغباته ومألوفاته من طعام وشراب ومتع ورغبات. واكتسب خلق المراقبة الذى يجعل من قلبه وإيمانه الحارس اليقظ، كما اكتسب خلق الرحمة، وخلق الصبر على الشدائد، وصار بما اكتسب منبع خير لنفسه ولغيره.. ثم ينطلق فى هذا اليوم فى رحلة أخرى ينضم فيها البدن إلى الروح ويستعين المسلم بما كثره من خير على حركة الحياة اليومية. ولاشك أن الابتهاج فى هذا اليوم مظهر لفرحة عامة تشمل المسلمين فى كل بقاع الأرض، فكأنما يتوحدون فى فرحة واحدة، تأخذهم وتحتويهم وتتوحد بهم توحداً يشعر بالقوة والتآزر.

والإسلام لم يشأ لهذه الفرحة أن تظل مطمورة فى الصدور بل طلب إلينا أن نعلن هذه الفرحة عالية مدوية فى صورة حياة قوية، تتسم بالطهر والعفاف.

وثمة مقصدان كبيران وراء عيد الفطر.. كل واحد منهما يتضافر مع الآخر ليصنع منه يوماً فريداً فى الزمان.

المقصد الروحى الذى يتمثل فى تجربة الصوم، تلك التجربة التى تنتهى بالعيد وتجربة الصوم عبادة ذات أثر عميق فى بناء الذات المسلمة فهى تعمق فيه العقيدة كقوة، وتقوّم فيه السلوك كفعل فيلتقيان ليصنعا ضميراً إسلامياً

يقظاً يراقب الله فى السر والعلن ويخشى الله فى التصرف والسلوك. ومن ثم يكتسب المسلم نمطاً فريداً من الخلق الإسلامى الكامل الذى هو من لوازم الحرص على متابعة ومعايشة الواجب الدينى معايشة كاملة.

ويحمل المسلم هذا الخلق الدينى الكريم فى رحلته بعد الصوم فتشكل مسلكه بعده، وتحدد نمط سلوكه وتعاملاته اليومية حتى يدرك لحظة التسامى، عما هو قبيح فى الفعل والقول وتظل صفحته نقية طاهرة كاملة. والمسلم وقد قام بهذا الواجب الدينى قياماً متكاملأً يستقبل العيد بهذا التهليل والتكبير إعلاناً وشكراً على نعم الله التى هداه إليها ووفقه إلى النهوض بها فى يسر.. وأعظم مظهر لليسر يتمثل فى الاثر التربوى الناتج عن العبادة الكاملة.

قال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)

والتهليل والتكبير من مناسك العيد ويكون من بعد صلاة الفجر حتى عصر يوم الفطر. ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على فعل ذلك. وتتساب عبارات التكبير والتهليل إعلاناً بالشكر على النعمة وخلصاً لله سبحانه وتتردد عبارات (الله أكبر، الله أكبر والله الحمد) ابتهاجاً بقدوم يوم اسلامى عظيم يستبشر فيه المسلمون بالخير، ويتطلعون إلى مستقبل أيامهم فى ثقة العابد، وأمل المؤمن الشاكر. إنه شعار الانتصار الروحى فى التجربة الماضية والتصميم على متابعة هذا الانتصار فى التجارب المقبلة.

والشكر واضح فى تلك التجربة العميقة ففيها تتغير الأحوال والملابسات ففى هذا اليوم يكون الشعب بعد جوع طال، والرى بعد ظمأ امتد، والعطاء بعد حرص شديد، فيحس المسلم بقلبه العامر بنعم الله، وينطلق لسانه شاكراً أنعمه مهلاً مكبراً «الله أكبر والله الحمد».

ولاشك أن العيد يعتبر فرحة كبرى للصائم. قال صلى الله عليه وسلم «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه».

وصلاة العيد مظهر دينى خلاب يشعر بعظمة الخالق وشكر المخلوق، إنها بداية يوم العيد.. وما أجمل المسلمين وأروعهم وهم يخرجون إلى الخلاء مكبرين مهللين فى جماعات ينبثق منها تلك المشاعر النفسانية المبهجة بأداء

واجب دينى عظيم. ولقد حرص الرسول على الدعوة إلى صلاة العيد حتى لا يفوت أحد ثواب ذلك اليوم والشعور بالفرحة وطمأنينة النفس. فكان يدعو صلى الله عليه وسلم نساء المسلمين وأطفالهم إلى المشاركة فى هذا الخير العميم.. أما المقصد الثانى فهو مقصد إنسانى وهو مقصد عميق الأثر فى حياة الأمة الإسلامية وذلك يتمثل فى نظام الزكاة المفروضة.. والزكاة يواسى بها الغنى الفقير، والفقير من هو أفقر منه. فكما كانت ضريبة الصبر والزهد فرضاً فى رمضان على الجميع، أصبحت ضريبة البذل والعطاء والسخاء تنظم الجميع أيضاً.. قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته) لقد تساوى المسلمون فى الجوع والتقشف والصبر والصوم وفى يوم الفطر يتساوى المسلمون جميعاً شبعاً ورياً.. ومن ثم يظل الثواب معلقاً بين السماء والأرض حتى يتحقق ذلك التساوى فى الشبع والرى.. والذى وسيلته زكاة الفطر بما فيها من بذل وعطاء، وحب ومودة وتراحم وتآلف وتضامن.. (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

وهذا التشريع الإسلامى العظيم الذى يتحقق فى يوم الفطر إنما هو تربية عملية على الوحدة والتآلف والمساواة.. فثمة تجربة تجمع المسلمين جميعاً فى تذوق مشاعر الحرمان والجوع والفقر وثمة أخرى ترتفع فيها الأمة فوق مستوى الجوع والحرمان والفاقة ويتذوقون جميعاً وفى نفس اللحظة نعم الله وخيره فتكتمل بهجة ويعم السرور.. وهى بهجة حقيقية تليق بعيد له تلك المكانة فى الزمان والإنسان.

والإسلام يطالبنا فى هذا اليوم ان نكسو العارى ونواسى الشاكى ونجفف دمة الباكي حتى تملأ البهجة كل النفوس وترسم البسمة على الوجوه وتتحقق للأمة عزة الاستغناء ويزول منها ذل السؤال.

إن عيد الفطر سعادة وعبادة يجمع بين حظى الجسم والروح ويبقى على المعانى الفاضلة المكتسبة فى رمضان ليرتفع بها إلى أفق الإنسانية الفاضلة.

رمضان .. والتليفزيون

لا أدري لمَ يحدث هذا الارتباط الترفيهي بين التليفزيون وشهر رمضان الكريم وكأنه ارتباط شرطي يصعب الانفكاك منه، مع أنه شهر تتعامد فيه القلوب على نقطة الضوء التي تغسل الروح والبدن. يحب الله فيه أن يتقرب إليه العبد بالعبادة الصادقة وعمل الخير.. فيه تفيض الرحمة والألفة والمودة الخالصة والموعظة الحسنة فتعود النفس إلى فطرتها فتعدل سلوكها، وتطهر داخلها ويستقيم عملها، فيزول الكبر والكذب، وجمود القلب.. شهر يتأسى فيه المسلمون بالقدوة الصالحة التي تربي النفس على مكارم الأخلاق مصداقا للحديث «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ولعل الشهر أن يكون فرصة للمراجعة فكل إنسان يحتاج إلى إعادة ترتيب حياته، ومساءلة النفس عما أقدمت، فيتدرب على التدبر والتفكير والتخلص من أسباب الضعف ودواعي الغفلة التي تؤدي إلى الخسران. ومن ثم يتحقق القرب فيعلو الشعور بالآخرين، ويتوارى قليلا حب الذات، ويستعيد الناس صلاتهم المقطوعة ويصححون رؤيتهم تجاه من يتعاملون معهم فتسود الألفة الإنسانية وتشيع العدالة.

لا يهدف الدين إلى انتشار مظاهر سلوكية فجأة تكشف عن فهم بشري لا ينتهي وإنما يسعى إلى صقل الإرادة وتدريبها وتحقيق مبدأ الإحساس بالآخرين والدعوة إلى الموازنة والمساندة وفعل الخيرات من إطعام جائع إلى بناء مستشفى يخدم المرضى والفقراء منهم.. فمن سقى ظمأ سقاء الله من حوضه شربة لا يظمأ بعدها.

وإذا لم يستشعر الصائم هذه القيم فإن صيامه لا يعود عليه بشيء سوى الجوع والعطش ومسايرة الركب. فما فائدة أن يمتنع المرء عن الطعام والشراب ولا يشعر بالآلام الجائع أو بتأوهات المريض أو انكساره الفقير، ولا يعامل جاره معاملة حسنة أو يبعد عنه بوائقه.. هل قدم التلفزيون هذه المعانى وغيرها.

التلفزيون جهاز إعلامى خطير وأصبح الوسيلة الأولى لمخاطبة الناس والتأثير فيهم. وكلما كانت الرسالة الإعلامية متوازنة وصادقة كان مردودها مقنعا ومحققا للهدف.

كان من الواجب - وهو يسعى إلى تقديم الترفيه المسف - أن يقدم الأعمال والبرامج التى تخاطب الناس وتعالج القضايا التى تهمهم.. قضايا الريف، والصعيد والأحياء الشعبية، والعشوائية، والطبقة المتوسطة التى انهارت والبطالة التى تفشت، والدنس الذى استشرى فى البيت والشارع والمؤسسة والتكالب على رغيف الخبز، وسعار الأسعار، وأطفال الشوارع ونهب الأموال، وسوء التعليم، وأزمة المساكن، وافتقاد القدوة، وانسحاب الانتماء، والخلل الحزبى والسياسى.. وغير ذلك كثير.. لكن التلفزيون ترك ذلك كله.. وقام بتهميش الدرس الدينى وكأنه أمر مقصود.. وأغرق نفسه فى مستنقع الاعلان.. واستهلاك موضوعات قديمة.. وشغل جمهوره بما لا يغنى فكراً، أو ينضج عقلاً. وسادت الشاشة مشاهد مستفزة ومثيرة للعداء.. لهؤلاء الذين لم يروا مكاناً نظيفاً فى حياتهم أو مياهاً نقية يشربونها.. أو شيئاً مما يرونه فى الإعلان.

غرق التلفزيون فى القشور.. الفيللات والشقق الفسيحة، وأحواض السباحة وحدائق القصور، وصالات الرقص، وكئوس الخمر، والعلاقات المشبوهة وخيانات النساء والرجال وأولى الأمر فى المؤسسات، وخيانة الوطن، ولم يقدم ما يجب تقديمه من إشاعة الأخوة الانسانية التى تتمثل فى السلوك الصحيح.. ومكارم الأخلاق.

وفى ظل الهجمة الغربية كان على التلفزيون أن يقدم المؤمن والمواطن - متديناً فى وعى، مبتعداً عن الخرافة، فاعلاً فى الحياة، مقبلاً على العلم والعمل، متسلحاً بالفكر والروح منتمياً إلى الأرض والقيم.. ساعياً إلى بذل الخير من أجل حياة كريمة لكنه لم يفعل إلا نادراً.

النسأهل فى قضايا الدين

بعد أداء صلاة العشاء والتراويح دخلتُ إلى صيدلية بجوار البيت. كان الصيدلى يشاهد من تليفزيون صغير أحداث المسلسل الذى يقوم ببطولته الفنان نور الشريف، وحين رأتى عاتبتنى عيناه وواصل المشاهدة. أدار رأسه بينى وبين الموقف الدرامى وقال فى حدة: هل يروِّج التليفزيون للخطيئة؟.. ظل التعبير عالماً بين أهداب عينيه. وقلت مستفسراً ومندهشاً: بالتليفزيون هيئة رقابية لا تسمح بذلك.. ثم ما الذى جعلك تقول ذلك؟

أشار بيده إلى التليفزيون: لا تقل إنك لا ترى المسلسل. لقد تناولوا موضوع المحلل فى سخرية شديدة، وباستخفاف لا يقبله عقل. ثم رmq عدداً من المترددين على المكان وقال: هل الدين يسمح بذلك؟ هل يجوز لزواج أن يأتى برجل لينام مع زوجته «ليحلها» له؟

أثر فى السؤال، واستعدتُ مشاهد المطاردة بين الصديقين، والتتصل من الاتفاق الذى أبرماه بخصوص «تحليل» الزوجة، ومراوغة الزوج الأول وإقبال الزوجة على «المحلل» ورغبتها فى الاحتفاظ به، والكيد لمطلقها. وتذكرت أحد الأفلام الذى قام بطل العمل فيه بتأجير جسده بالاتفاق مع الأزواج - كمحلل لزوجاتهم - نظير مبلغ مالى.

وشملنى ضيق شديد من التساهل فى قضايا فقهية تتصل بالأحوال الشخصية وبسلامة الأسرة ونقاء التربية، والحفاظ على الأبناء. والغريب أن

ذلك يحدث فى شهر رمضان.. شهر الصوم والعبادة. قلت للصيدلى إنَّ ما يعرض خارج نطاق الفقه وأن الشريعة عالجتُ الموضوع على غير ما يذاع. فالدين يقول إن الزوج إذا استنفد عدد مرات الطلاق تصبح الزوجة محرمة عليه، ويمكن له أن يعود إليها إذا تزوجت زواجاً صحيحاً - دون أن يكون له دخل فيه - وذلك إذا طلقت أو مات عنها زوجها الجديد. وما يفعله الناس وتصوره الدراما يخالف المقصد الشرعى الذى يحصن الزوج والزوجة معا. ولقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الممارسات التى تتنافى مع مقاصد الشريعة.

ولقد وضع القرآن الكريم هذه الحالة من الزواج فقال تعالى: (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظلّا أن يُقيما حدود الله).

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المحلل. لعن الله المحلل والمحلل له. وعن عمر رضى الله عنه. قال: (لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها. فسئل ابنه عن ذلك فقال: كلاهما زان).

وما درج عليه الناس فى هذا الموضوع كذب وخداع، لأنه زواج صورى «لم يشرعه الله فى دين، ولم يبيحه لأحد، وفيه من المفساد والمضار ما لا يخفى على أحد».

وهو زواج ينتفى فيه الغرض من النكاح وهو دوام العشرة، وتربية الأولاد والتاسل وغير ذلك من المقاصد التى يحققها الدين.

إن معالجة هذه القضايا تحتاج إلى مراجعات فقهية حتى لا يقع الناس فى الالتباس، وحتى لا يكون العمل الدرامى مدعاة للباطل.

على مائدة القراء

قصص القرآن .. والتأثير النفسى

القصة نوع من الأدب الجميل .. وهى عالم تحتشد فيه الرؤى والأفكار، وبها يشغف الصغار والكبار على السواء، وهى فى مجالها المسموع والمقروء تتطوى على قدر كبير من التأثير الذى يساعد على التحول فى الشخصية، أو الإيمان بمعتقد جديد وقيم أخلاقية جديدة، وكذلك التخلّى عن العادات المردولة التى لا تتلاءم مع الفطرة السوية. لقد شاعت الرواية الشفاهية قبل التدوين لأنها تلبى شغفاً حقيقياً فى النفس البشرية. وفى سرد القصة جمال أخاذ إن أجيد بناؤه سما بالقصة وبعث فيها حياة جديدة، وإيقاعاً متناسقاً فى الألفاظ والانفعالات، وأعطى الشخصية طابعها وصفتها المميزة.

وقصص القرآن الكريم تعتمد اعتماداً قوياً على السرد العالى الذى يأخذ بالألباب ويبهر العقول، ولما كان المجتمع آنذاك مجتمعاً غير قارىء، كان لسارد القصة على السامعين أثره البارز ومكانته العالية ويتجلى هذا التأثير فى استغلال الشغف الفطرى إلى الحكى والحكاية.

ولقد حظيت القصة بمكانة عالية فى القرآن الكريم، فلا تكاد تخلو سورة من قصة، أو إشارة إلى قصة، أو إبراز جزء من قصة، أو تسجيل هدف سريع لقصة سريعة، ولم يكن الأمر فى القرآن ناتجاً لمجرد الاستمتاع بالسرد القصصى، وإنما لما تستطيع القصة أن تؤثر به كمنهج تربوى يصوغ وجدان المسلم صياغة دينية كاملة.

ولقد أثر القرآن فى القلوب تأثيراً بالغاً وجذبت القصص خيال البشر، وأثرت مصارع الأقسام فى إشاعة الخوف فى النفوس وتدبر قدرة الله .

ولعل إسلام عمر بن الخطاب مثال بارز على تأثير الآيات القرآنية وما تضمنتها من مواقف قصصية، لقد خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وتحول مساره إلى بيت أخته، وكان «خباب بن الأرت» يقرئ أخت عمر وزوجها آيات من سورة «طه» واحتد عمر وغضب ونالهما منه الأذى ثم أخذ الصحيفة وقرأ الآيات، وبعدها أعلن إسلامه، ولقد أثار إسلامه . رضى الله عنه . ضجة كبرى وزاد به المسلمون عزة وشفراً، واتجهت الدعوة إلى العلانية، قال صهيب الرومى: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، وجلسنا حول البيت وطفنا، وقال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر.

ولقد حكى القرآن بعضاً من قول الكفار الذى يدل على الاضطراب الذى سيطر على نفوسهم من تأثير القرآن الكريم، قال تعالى: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون».

إن الرواية المفصلة لإسلام عمر رضى الله عنه تذكر أنه قرأ صدرا من سورة «طه» فتأثر تأثراً بالغاً، إن عمر أخذته الآيات بجرسها الصوتى، وجمالها الإيقاعى، وانتظام الآيات فى ايجازها المحكم، ولقد واجهت عمر وهو ينتزع الأوراق قصة قرآنية هى قصة موسى عليه السلام، ولقد استحوذت القصة عليه، وتملكت مشاعره، وظهرت وجدانه وجعلته فى النهاية يتحول ويعلن إسلامه، لقد عرضت سورة «طه» قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، وتكاد السورة تكون خالصة لها، خاصة فيما يتصل بموقف المفاجأة بين موسى وربه، وموقف المبارزة، وفى ثايها تلك القصة تتجلى رعاية الله لموسى، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة.

ولا جدال فى أن المغزى من الآيات قد وضع لعمر بن الخطاب وهو يدرك مساندة الله لأنبيائه.

وهو من فرسان العرب ومتذوقى الشعر وأعرفهم بأثر اللفظ وتأثير العبارة، ودلالة القصة.

فلم ينصرف خياله عن أحداث القصة، ومساندة الله لنبيه ومآل الكفرة..

فحدثت الهزة ووصل التأثير إلى نهايته، والآيات وردت لتطبيب الرسول، وتأكيده الوحداية.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ صدق الله العظيم طه ٩-١٤.

وتصور معي عمر بن الخطاب وهو يقرأ هذه القصة بهذا الأسلوب المعجز والذي يتضمن التوكيد، وأسلوب القصر بما يؤكد على وحدانية الله، وهو الغرض الديني الذي يتجلى في القصة، وانظر معي إلى كلمة «اخلع» والتي هي أمر لموسى بالتأدب في مقام الهيبة الإلهية ثم التكليف في «اعبدني» بإفراد العبادة لله ثم إقامة الصلاة كمظهر تعبدي.

لقد قص الله على رسوله حديث موسى كنموذج لرعايته للمختارين لحمل دعوته وهو خطاب «لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه، ولا يتركه يشقى بهذا القرآن، ويواجه الكافرين بلا سند»، إن القلب يستشعر قرب الله وموازنته ومن ثم يتحقق التأثير بما ورد في القصة.

ولقد قدم القرآن الكريم القصة ذات الصدق الموضوعي والشعوري بعيداً عن الخلط بين الحقائق والأوهام، فالقصة القرآنية صادقة كل الصدق فهي تتناول موضوعات وأحداثاً وتاريخاً وأشخاصاً ليس لنا بها دراية، إنها صادقة بابتعادها عن الأساطير والخرافات والخيال الوثنى والوهم واقترباها من الواقع والحقيقة بعيداً عن تلفيق الوقائع أو اختلاق الأخبار.

ومن ثم فطبيعة القصة القرآنية تغاير فنون القص الأخرى، فهي ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه. وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن إلى تحقيق هدفه الأصيل، فالقرآن كتاب دعوة دينية والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة شأنها في ذلك. كما يرى سيد قطب. شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها.

كما أنها سجل حافل بكل أنواع التعبير الأدبي من حوار وسرد ووصف، وتنظيم إيقاعى، وإيقاع ظاهر وباطن، وإحياء للشخصيات، وتصوير رائع لحركة الشخصية، ثم تأتى اللحظة التويرية فى القصة لتخترق القلب الإنسانى فتوجهه الوجهة الصحيحة.

والابداع القصصى فى القرآن لا يتأتى إعجازه وصدقه من ناحية التركيب أو الحدث بل يتأتى من المنهج المتكامل فى تمازجه حيث يذوب كل عنصر من عناصره فى قلب العنصر الآخر.

إن استحضار المشاهد فى القصة القرآنية تبدو وكأنها مشاهد حاضرة مؤثرة.

لقد كان غرق فرعون مشهدا حاضرا يأخذ بالألباب ويحمل العبرة والعظة معا .
قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
يونس ٩٠.

الآية الكريمة تستحضر مشهد غرق فرعون، وتؤكد أن ذلك جاء نتيجة طغيانه وظلمه، وأن إيمانه لم يفده. والآية تصور فى سياق قصصى حركة الهرب الكبير الذى قام به موسى عليه السلام وحركة المطاردة العنيفة التى يقودها فرعون.. قطبان للصراع.. موسى يرحل بقومه ودينه، وفرعون يصير على تصفية الدين، واستقام للصراع هدفه فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر. ويعقب هذا المشهد الحى خطاب يتسم بالتقريع ويسجل المعنى المقصود من الحكاية.

قال تعالى: ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس ٩١ - ٩٢.

الخطاب القصصى يكشف عن أن فرعون استحق العقاب بما عصى، وقد جعله الله عبرة وعظة لمن يعتبر ويتعظ من البشر، فأخرجه الله من البحر بجسده وهو الجبار الطاغية جثة هامة عبرة لغيره من الجبابرة وحتى لا يطفوا مثل طغيانه.

قال ابن عباس: إن بعض بنى إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه.

وجاء التعقيب (وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) توجيهها ونصحها وإرشاداً وتربية. وتلك طبيعة القصة القرآنية، حيث تبرز الهدف من إيراد المشهد وتؤكد على تدبر آيات الله وقدرته.

إن قيمة الأثر الفنى تتجلى (فى سحره البيانى، وتأثيره النفسى، وبما يحمل من قيم روحية، واتجاهات جديدة فى الحياة).

وهذا المشهد حلقة من حلقات قصة موسى عليه السلام، جاء مختصراً مجملًا لأن الغرض من سياقة هذه الحلقة من القصة فى هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة. بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله (الظلال ج ٢).

وتكشف هذه الحلقة من القصة كما كشفت الحلقات الأخرى عن المعجزات التى أجراها الله سبحانه على يد موسى عليه السلام، وتمثلت المعجزة هنا فى فلق البحر ونجاة موسى الرسول. وجاء هذا المعنى موازياً لمؤازرة الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم فى هجرته من مكة إلى المدينة.. ومن ثم تبرز الآية دلالة تأييد الله لرسله، ولقد تكررت النتيجة فى مواقف قصصية أخرى لتؤكد على هذا المعنى.. قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ غافر ٤٥.

إن ما تقصه القصة القرآنية من أخبار الأولين يحمل بواعث الخوف، لأن غريزة الخوف تتصل بغرائز الدفاع عن النفس، فهى أبلغ أثراً فى النفس خاصة عند توقع البلاء.

ولقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم الدور المؤثر الذى تقوم به القصة، فاستخدمها من أجل إبراز الهدف التربوى والتعليمى، باعتبارها وسيطاً مؤثراً فى الوجدان والعاطفة.

ولقد كان - صلى الله عليه وسلم - وهو يحتذى الهدف الدينى فى القصة القرآنية يضمن القصص معانى عظيمة، تتهل من القرآن الكريم كالأمانة، والعفة، والنزاهة، والخلق، ومحبة الله، والعمل الصالح والجهاد والمواظ

وغير ذلك من الموضوعات التي تناولتها القصة النبوية، ولقد تضمنت القصة الإشارات التي تساعد على توصيل المعنى إلى المتلقى.. مثل روعة التصوير وجمال السرد، وإثارة التنبية عن طريق التشويق.

واتخذ الرسول من القصة أسلوباً من أساليب الدعوة ضمنها قيم الإسلام ومعانيه وأحكامه وأخلاقه، وهو في هذا التناول كان متلائماً مع الجو الذي ساد بيئة العرب وميلهم إلى الاستماع إلى القصص والحكايات، ولقد حظيت القصة بجانب كبير من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول حريصاً على أن يشد انتباه المسلمين عن طريق القصة، كما كان يتعهد الصحابة بالقصة وعظاً وتعليماً وتربية، وكان صلى الله عليه وسلم يكرر القصة الواحدة أكثر من مرة وفي أكثر من مجلس.. وربما كان السبب ما كان يحرص عليه الرسول من تقرير ما تهدف إليه القصة من غايات وما تتحدث عنه من موضوعات في نفوس المستمعين «القصص في الحديث النبوي د. محمد الزبير».

والقصة النبوية حرصت على أن تكون نهايتها واثية بالرضا والطمأنينة وداعية إلى العمل الصالح. ففي قصة «جرة الذهب» تتضح القيم الإسلامية النبيلة (اشترى رجل ممن كان قبلكم عقاراً من رجل فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له المشتري: خذ ذهبك، فإنما اشتريت العقار، فلم ابتع منك الذهب، فقال البائع إنما بعثك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ فقال أحدهما لى غلام. وقال الآخر: لى جارية. فقال أنكحوا الغلام الجارية وانفقوا عليهما منه وتصدقاً) «جمع الفوائد ج ٢».

يبرز الصدق واضحاً في القصة، فكل الرجلين صادق في موقفه، لا يريد أن يدعى ملكية شيء لم يسع إليه، عثر المشتري على جرة الذهب واعتقد أنه لا حق له فيها فطلب من البائع أن يأخذها، ولكن البائع رفض إذ باعه العقار وما فيه، إن الذهب يغري ضعاف النفوس أما هذان الرجلان فقد حماهما الإيمان وطمأنينة النفس والقناعة من أن يقعا فريسة الغواية والهوى.

ولقد أدرك الرجل حيرتهما واهتدى إلى حل كريم حيث أشار إلى أن يتزوج الفتى من الفتاة، وأن ينفقوا ويتصدقوا.. إن الذهب سيعود بطريقة غير

مباشرة إلى كلا الرجلين، وتغرى القصة السامع بالعمل على التصديق.. وإنفاق المال على المحتاج فيه إيناس، وتضامن، وإشاعة للمحبة وإزالة للبغض والحسد، وكلها معان تستفاد من القصة.

إن القصة تكشف عن صورة مثالية للإنسان الذى يتعفف عن المال المشبوه ويتمسك بالخلق الكريم، وكان ضمير «المخاطب» وسيلة إلى جذب المتلقى لمعاشته للحدث وإدراكه المغزى الخلقى.

كما أثار الحوار التشويق لمعرفة النهاية مما يساعد على التأثير وتوصيل الدلالة الخلقية.

لقد تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بقصص القرآن وتجلّى ذلك فيما روى عنه من أحاديث.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم قسمة فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، فبلغ ذلك إليه فتغير وجهه وغضب ثم قال: لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر، وروى أنه قال: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد» وقال صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح مكة: «إنى أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم. وهو أرحم الراحمين».

وقد روى أنه قص على أصحابه قصة موسى والخضر فلما بلغ قوله: «هذا فراق بينى وبينك» قال: «وددنا أن موسى صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

لقد كان صلى الله عليه وسلم يقص على أمته قصصاً هادفة ذات نزعة تعليمية مثل قصص القرآن ومتأثرة بمنهج القصة القرآنية.

لقد كان للقرآن الكريم ولسنة الرسول فضل الريادة فى هذا المجال التعليمى.

وتستطيع القصة وهى تتأسى بالقصة القرآنية أن ترسى قواعد منهجية ثابتة تساهم فى تربية الروح والعقل والوجدان وتنزع من النفس سخائمها واضطرابها.

ولقصص القرآن الكريم أثر بليغ فى توجيه العقيدة والسلوك، فتأثير بعض

القصص الذى يصف ما نزل بالمكذبين لرسلمهم من أهوال العذاب يحدث شعوراً بالخوف من عاقبة العصيان، وهو شعور يتجدد كلما أثار انفعاله قصة من قصص القرآن، قال تعالى: «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون...».

من السرد القصصى فى القرآن الكريم نوعاً نموذجياً

لل قصة فى القرآن الكريم طبيعتها الخاصة وبنائها المتميز، وهى وسيلة بارزة من الوسائل التعبيرية لتحقيق الغرض الدينى بما تتضمنه من خصائص تؤثر فى النفس وتتغلغل إلى أعماق الوجدان الإنسانى. فهى تثير الانتباه بما تقص من أنباء وأحداث فى أداء تعبيري يجيش بالحركة والحياة، فتسرى الحكمة والعظة فى إحياء جميل يقر فى النفس قراراً مكيناً حتى ليصبح التأثير نابعاً من الوجدان يشع بحركة الذات وهى تتلقى الحدث القصصى فى انبهار شعورى متدفق.

ولقد استخدمت القصة القرآنية لإحداث هذا التأثير طرائق فنية وجمالية خاصة بها.

ومن أهم هذه الطرائق الفنية وسيلة السرد القصصى.. ذلك أن السرد فى القصة قائم على قانون الانتخاب فى اختيار الموقف القصصى الذى يتلاءم مع السياق القرآنى والهدف الدينى.

وأهم ما يلفت النظر أن القرآن وهو يسرد القصة يقوم بعملية فنية تعتمد على انتخاب الوقائع والأحداث فى إجمال لا يحتاج إلى تفصيل، وهو مبدأ فنى أدركه الكتاب حديثاً؛ حيث يعتمد المؤلف إلى تحية كثير من التفاصيل

التي تضر بالحدث مع الإبقاء على جوهر الحدث وتوجهه معا . والحدث المسرود يمنح القصة حياة ويضفي عليها الحركة، والحدث فى قصص القرآن بارز ومسيطر فالصياغة تمسك بالأحداث وتحرك الأشخاص فى هيمنة تعبيرية معجزة.

والكاتب الروائى وهو ينتخب أحداث نصه القصصى « .. يجلس أعلى من عمله، يلقي شعاعاً من الضوء هذا، ويتحرك مرتدياً طاقية الإخفاء هناك، وهو يتفاوض مع نفسه كمبدع للشخصية عن أحدث تأثير يمكن أن يحدثه..»^(١).

وهذا ملمح تعبيرى سبقت به القصة القرآنية محاولات الكتاب فى هذا المجال .. حيث تلاعب أسلوب العرض فى القرآن مع انتقاء الحدث المسرود .. فتجى كل ما لا يمت للحدث بصلة، وما لا يتامى مع الهدف الدينى، واتجه إلى التركيز حول محور الشخصية وجوهر الدعوة إلى التوحيد ورصد ردود الأفعال البشرية.

والقصة القرآنية وهى تقوم بهذا الفعل التعبيرى المؤثر تلتزم «طريقة الرواية التى تؤذتك دائماً بأنك تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها فى التاريخ.. وأنها فى هذا العرض إنما هى بعث جديد»^(٢) وهذا يساهم مساهمة فعالة فى تصفية الأحداث التاريخية مما علق بها من تحريف وتشويه. ذلك أن هذه الأخبار «تجى من جهة عالية عامة، وسع علمها ما تحوى الأزمنة والأمكنة»^(٣) والملاحظ الفنى فى السرد القصصى أن القرآن وهو يسرد الحدث يتقل تتقلاً سريعاً فى عرض الأحداث وتتابعها بحيث يحدث جواً فنياً مليئاً بالحركة وكأننا نحن أمام مشهد حافل بالنشاط والحيوية.

وقصة نوح عليه السلام - وقد وردت فى سورة هود - نموذج لهذا الملاحظ الفنى فى تتابع الحدث وسرعته، وفنية سرده العالية.

قال تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) إلى قوله تعالى: ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تردري أعينكم

١ - أركان القصة: فورستر، ص ١١٩

٢ - القصص القرآنى: عبدالكريم الخطيب، ص ٨٣

٣ - نفسه ص ٨٤

لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنْ الظَّالِمِينَ (٣٦) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(١).

إن أحداث القصة وردت مفصلة، وجاء جانب الدعوة أكثر تفصيلاً لما تحتاجه الدعوة إلى وقت، ولما يكتنفها من صد وإعراض مما يجعل الجدل عنصراً فنياً متسيدا . وبدأ الحدث القصصى بما يجعله مشهداً حياً وبعث الواقعة التاريخية بما يجعلها ماثلة أمام المتلقى فى ثوب جديد . ومن ثم جاء الإيجاز الناتج عن حذف الفعل «قال» فى العبارة القرآنية «إنى لكم نذير مبين» واشياً فى سرعة وحسم بوظيفة الرسالة وهدفها .

ويتوزع الجدل القولى . وهو يعكس فعل الحدث . إلى اتجاهين . الاتجاه التوحيدي حيث وردت الأدلة العقلية لإدراك حقيقة الألوهية والوحدانية والتأكيد على رسالة نوح عليه السلام . وتمثل الاتجاه الثانى فى نفور الكافرين وتعاليلهم ووصولهم بالحدث إلى نقطة التحدى .

ووشى الاتجاه الأول بتكوين دلالى يتناول نموذج الداعية فى سماحته وصبره «فى مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد، دون استرضاء لتصوراتهم ودون ممالأة لهم، مع المودة التى لا تتحنى معها الرؤوس»^(٢) . على حين كشف الاتجاه الثانى عن انطماس القلب وجمود العقل .

وهذا المعنى الذى كشفه الحدث المسرود يلفت الذهن إلى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وموقف الكفار منه . وهو التفات يعمق سياق المعنى ويؤكد على وحدة الرسالة فى إشارة سريعة ليلتقى الماضى بالحاضر التقاء امتزاج وتوحد . ثم نلتقى مع منحى جديد للحدث الكلى .

قال تعالى: وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ^(٣) .

١ . انظر سورة هود من ٣١ . ٣٢ .

٢ . الظلال . ج ٤ ، ١٨٧٥

٣ . هود ، ٣٦ . ٣٩

الآيات تنتقل من حدث إلى آخر فى سرعة خاطفة وفى ترابط داخلى يصور مراحل الدعوة. فثمة أمر موجه إلى نوح عليه السلام بصنع السفينة. إنه حدث يقتضى التهيؤ له والانعزال من أجله والانغماس فى العمل لتحقيقه. وارتبط بالعمل حدث أدخل إلى النفس حيث يكشف عن جانب السخرية من القوم. فهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يدركون الحكمة من وراء ذلك. وجاء رد نوح عليه السلام رداً يحمل حديث النفس إلى النفس. وهو ملحظ فنى سبقت به القصة القرآنية كل ما طرأ على فن القص الحديث «ويكاد هذا الرد يكون نوعاً من تيار الوعى فهى إجابة قد يقولها نوح بصوت مسموع أو يقولها لنفسه»^(١) وتيار الوعى لون من الأداء القصصى عرف أخيراً حيث تروى الأحداث حسب أهمية ورودها على الذهن مما يؤدى إلى الخلط والغموض ومن ثم فإننى أميل إلى مصطلح «حديث النفس» لأنها تصل بالحدث إلى نهايته الطبيعية حيث يحمل الحدث الوعيد والتهديد، (فسوف تعلمون من يأتية عذاب يخزيه) وتحول الحدث إلى موقف حى حيث جاء الفعل المضارع «يصنع» ليعطى للموقف المسرود حضوراً قوياً، وكذلك «نسخره» و«تسخرون» يجذب بأطراف الحدث فى حضور مشتجر.

ثم ينتقل الحدث إلى مشهد حى زاخر بألوان الانفعالات والمشاعر حين يتناول مشهد الطوفان الممتلىء بالوصف الحسى والتجسيم المشهدى المروع.

قال تعالى: (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول وما آمن معه إلا قليل) إلى قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين)^(٢).

.. الأحداث المعروضة مسرودة بحيث يمسك بعضها بعضاً، وينتج بعضها عن البعض فى سببية تؤدى إلى التماسك فى المشهد، فالحدث مشهد كونى.. فالأرض تتفجر والسماء تهطل، والسفينة - التى سخر منها القوم - تصبح قارب النجاة ووسيلة الإنقاذ. وجاء الحرف الغائى «حتى» ليوضح الغرض والغاية من الصنع.

١ - السرد القصصى، ثروت أباطة، ص ١٢.

٢ - هود ٤٠ - ٤٤.

ويتداخل مع الحدث الكوني حدث بشري سريع فيه الخوف وفيه الطمأنينة معا حيث يجمع نوح عليه السلام من كل زوجين اثنين ليحقق مسيرة الحياة . بإذن الله . فيما بعد .

والحدث مسرود عن طريق الوصف، فالسفينة تمخر العباب، والموج مترام وممتاقل، وعال كالجبال وهو يثير مخاوف النفس . وتلك المشاعر الوجدانية تتقلنا نقلة سريعة لتكمل سرد الموقف في جانبه النفسى حيث وردت المفاجأة بين نوح عليه السلام وولده الضال في إدانة العاصى وسقوط النفس الآثمة «وحال بينهما الموج فكان من المغرقين».

ويصل المشهد إلى نهايته في نقلة سريعة في النص القرآنى طويلة في الزمن التاريخى .

وتلاعت السرعة مع تلاحق الأحداث لتصنع لنا مشهداً دائرياً يحكم قبضته على الكون والإنسان بداية من جفاف الأرض التى تفجرت فيما بعد وانتهاء بانحسار المياه لتجف الأرض ثانية لتبدأ رحلة الحياة من جديد . ولقد ورد الفعل «غيض . قضى . قيل» على البناء للمجهول للدلالة على الجلال والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك فى أفعاله^(١) وتلاعت إرادة النداء مع هذا المعنى العظيم .

ثم ينتقل الحدث إلى مجال آخر يتصل بالعاطفة الأبوية .

قال تعالى: وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢)

المشهد القصصى يكشف عن عاطفة نوح عليه السلام تجاه ولده، لقد تقطع قلبه حزناً وتلهف خوفاً عليه فلجأ إلى الله داعياً إياه أن ينجيه من المصير .

١ . الكشف، ج٢، ص ٢١٨

٢ . هود : الآيات ٤٥ - ٤٨ .

ولكن أمر الله مقضى. فالولد عاص واللهافة لا محل لها ولا مكان فالقربة ليست قربة دم أو نسب وإنما هي قرابة الدين والعقيدة. ومن ثم فقد حملت أداة التوكيد إن بتكرارها هذا المعنى.. كما تحمل الآية المواساة لتسكين النفس وتهديتها. وينتهي الحدث الكبير بالحياة من جديد حيث تتابع الأمم في حياة تتصف بالمتعة والعذاب. ومن طبيعة السرد القصص وجود مساحات زمنية متصورة بين حدث وآخر.. وتلك فجوات لا تعطى للبعد الحدثي نمواً، ومن ثم غفل القص القرآن عن سردها مكتفياً بسرد جوهر الحدث وتواصله مع الأحداث الأخرى في نقلات سريعة مؤثرة متلاحقة، وكانت أحداث القصة في النموذج المذكور متلاحقة ومتماسكة منذ الدعوة وحتى الاستقرار من جديد على الأرض. وهذا التواصل والتتابع يعطى للقصة تماسكها ويكشف عن وحدتها الموضوعية ويبرز ملامح الصراع فيها، ويوضح نمط الشخصية المحورية الفاعلة في الحدث الكلي، مما يؤدي إلى وحدة التأثير في المتلقى بصورة مركزة.

ولاشك أن التدرج في تطور الأحداث يمثل مظهراً قوياً في بناء الحدث وتماسكه من الداخل. كما أن الحدث المسرود يرتبط بمنهج السورة فيأتي متلائماً مع السياق والهدف الديني. والسياق في سورة هود سياق سردي حيث أخلصت السورة لموقف الأنبياء في دعوتهم إلى التوحيد وما تعرضوا له من تكذيب ثم نصر الله في النهاية لأنبيائه ورسله.

الرمز في قصص القرآن

●● يأتي القصص القرآني على نوعين: نوع ورد انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾^(١). ويسرد هذا الجانب القصصي أخبار الأنبياء والرسل والأمم الغابرة وما لقيه الرسل من تكذيب وصد، وما حاق بالأمم الغابرة من ألوان العذاب والتكليف الشديد بهم.

ولقد سيق هذا النوع من القصص لتحقيق أغراض دينية كإبراز جوهر الرسائل السماوية الداعية إلى الوحدانية وبيان أن الرسل في دعوتهم سلسلة واحدة منذ آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم. وما من نبي إلا وجاء بجوهر هذه الدعوة إلى التوحيد الخالص، بل وتكاد تكون العبارة واحدة في الصياغة والمعنى. فالعبارة القرآنية الكريمة (ما لكم من إله غيره) وردت على لسان الأنبياء بلا استثناء. قال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْكَافِرُونَ»^(٢). فالتوحيد أساس العقيدة «يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص»^(٣).

والنوع الثاني من القصص القرآني يتضمن جانباً إرشادياً رمزياً يتعلق بأحداث وقصص قد وقعت للمسلمين تحتاج إلى القول الفصل وتنتظر نزول

١ - يوسف آية ٣

٢ - الأعراف آية ٦٥

٣ - التصوير الفني/ سيد قطب ص ١٤٩.

القرآن الكريم ليبين فيها الحكم والتشريع، وكشف حقائق الموقف وأسرارها، كما حدث في حديث الإفك، أو الثلاثة الذين خلفوا، أو مناورات اليهود في المدينة أو غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من المواقف التي تعرض لها المسلمون. وهذا جانب طويل عريض في القصة الإشارية الرمزية. وثمة نوع من القصص الإشاري الرمزي جاء مبعوثاً في القصص التاريخية يحمل معنى رمزياً عميقاً يستدعي البحث والتأويل لإدراك المغزى والهدف الدينى.. وهو مرادنا في الدراسة. والرمز في اللغة هو الإيحاء والإشارة للإفهام بغير كلام. وقد يرد الرمز في الكلام وفي ثيابه ليكشف عن المعنى المراد الإيحاء إليه. ومن ثم تنشط المدارك العقلية للغوص وراءه. ذلك لأن الكلام المسرود «يحمل مضامين متخفية في أطوائه لا يبدو منها إلا رموز وإشارات خفية»^(١) حيث نستدل بها على تلك المضامين المرادة في الحقيقة. وهذا الجانب المتخفى في سياق العبارات عبر السرد الفني هو في الواقع منطقة رمزية.. تحمل الإشارة الموحية لفك الرمز الإشاري الوارد في السياق.. ولعل قصة «البقرة» خير نموذج لهذا النوع من القصص الرمزية. والإشارة إلى البقرة كرمز يحمل معنى عميقاً تدل عليه الإشارة المتكررة في السياق القرآني.. (فالإشارة هنا إلى محسوس خارجي، ولكنها في الدلالة تكتسب أهمية في الحدث لأنها أصبحت بؤرته ومحوره، وتصبح العلاقة، ليست علاقة تشابهية بقدر ما هي إدراك للمغزى الخفى)^(٢).

ولقد وردت القصة في سورة «البقرة»، تلك السورة الطويلة التي سُميت باسمها.. إشارة إلى مدى العمق الرمزي الذي تحمله البقرة كإشارة إلى معنى عميق يتصل بالتشريع والأحكام. ولقد حكى الآيات الكريمة القصة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّازِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

١ - قصص القرآن في منطوقه ومفهومه. عبد الكريم الخطيب، ص ٣٤١.

٢ - الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ص ١٥٤.

٣ - البقرة: الآيات ٦٧ - ٧٢.

والقصة تدور حول رمز حيوانى وهو البقرة. ولقد تناولت كتب التفسير جانبين من القصة، كل جانب يغطى موقفاً من القصة بحيث يتبدى لنا المعنى العميق، ويكشف لنا السر من وراء الرمز. والجانب الأول يدور حول رجل بالغ الغنى.. من بنى إسرائيل لا ولد له، فاستعجل وارثه قتله ليأخذ ماله، وتظاهر بأنه يطالب بدم القتل أو دية القتل. وعن ابن عباس: كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال وله بنو أخ يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله فى الليل، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله، فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى، فقال موسى عليه السلام: انشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به. فلم يكن عند أحد منهم علم منه. فسأله أن يسأل فى هذه القضية ربّه عز وجل فسأل ربه عز وجل فى ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح البقرة^(١).

والجانب الثانى الذى يكمل بناء القصة ويكشف عن بعض معانيها المستترة يتمثل فى الولد الصالح الذى كان باراً بأبيه وكان يملك هذه البقرة الموصوفة، فلما وجدها القوم المتخاصمون عنده ساوموه عليها وتزايدوا عليها حتى اشتروها بوزنها ذهباً.

يقول الزمخشري: «رُوى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له «عجلة» فأتى بها «الغیضة» وقال: اللهم إني أستودعكها لإبنى حتى يكبر - وكان براً بوالديه. فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً»^(٢).

والقصة تكشف عن دلالات رمزية وإيحائية متعددة، فهى تدل على طبيعة بنى إسرائيل المتشككة وعدم استجابتهم للتكاليف، وتلمس الحجاج والسخرية المنبعثة من قلوبهم الغليظة وألسنتهم الحداد. ولقد ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار وكان الأمر فى سعة، فأصبحوا مكلفين بأن يبحثوا عن بقرة محددة تحديداً قاطعاً. ولقد كشف الحوار عن هذه الطبيعة الشكسة.

- إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

١ - قصص الانبياء - ابن كثير، ص ١٢٥ - ١٢٦

٢ - الكشاف ج ١ ص ٧٥.

- أتَهْزَأُ بِنَا يَا مُوسَى وَتَسْفَهُ عَقُولَنَا!
- أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مُسْتَهْزِئًا بِكُمْ.
- مَا الْبَقْرَةُ الَّتِي تَرِيدُنَا أَنْ نَذْبَحَهَا، فَالْبَقَرُ كَثِيرٌ!
- هِيَ وَسَطٌ بَيْنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ.
- فَلْتَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا.. أَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْبَقَرِ وَلَوْنُهُ؟
- هِيَ بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ شَدِيدَةُ الصَّفَرَةِ تَسُرُّ النَّاضِرِينَ.
- إِنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَحْدِيدِ أَكْثَرِ فَلَا عَمْرَ الْبَقْرَةِ كَافٍ وَلَا لَوْنُهَا.
- هِيَ بَقْرَةٌ لَمْ تَسْخَرْ لِحَرْثِ الْأَرْضِ وَلَا لِسَقَايَةِ الزَّرْعِ.. مَبْرَأَةٌ مِنَ الْعِيُوبِ وَلَا شَيْءٍ فِيهَا.
- الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ

وانتهى الغموض الذى اكتنف الأمر كله.

ولقد دلت القصة فى مستواها العميق على قدرة الله وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة. وتلاؤم سياق الأداء القرآنى مع تلك النقلة الدينية، حيث تحول الأداء من سرد الحكاية إلى استخدام الخطاب ليكشف عما يكتنفه الرمز - البقرة - من معنى دلالى حيث ظهر الحق على لسان القتل، وتجسدت أمامهم آية البعث بعد الموت. وكان ذبح البقرة هو الوسيلة لإبراز تلك الآية الإلهية. وكان الإحياء عبر بضعة من البقرة قال تعالى: (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته).

«وما فى البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء، إنما هى مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله التى لا يعرف البشر كيف تعمل، فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها»^(١).

وكطبيعة الرمز فقد بدأت القصة بداية تثير الشوق، فثمة مجهول لا نعرفه، وثمة حوارات تدور حول محسوس ظاهرى، ولكن الباطن مغيبٌ ولم تسفر القصة عنه إلا فى سياقه الطبيعى ومكانته الدالة عليه. وبين البدء والمنتهى ثمة فجوات - كطبيعة المنهج القرآنى فى القص - يستطيع الخيال البشرى أن

١ - الظلال - سيد قطب ج ١، ص ٨٠

يملاؤها حيث ندرك طبيعة النبی الصابر على لجاج القوم وطبيعة بنی إسرائيل الشاکة المدهشة، الباحثة فی لهات عن شیء مادی یفضی فی النهاية إلى أمر معنوی.

والتشویق مسک أنفاس القوم وأنظارهم وقبض على مشاعرهم الداخلية. فالواقعة - قتل النفس - جرت قبل الأمر بذبح البقرة، وإن وردت فی الذکر بعده، وذلك مدعاة إلى التشویق والرغبة فی معرفة سبب الذبح «وغير الترتیب لتکریر التوبیخ وتشیة التقریع كما قال أبو السعود»^(١) وإن کل ما قص من قصص بنی إسرائيل إنما قصّ تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقریعا لهم علیها. وهاتان قصتان کل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقریع وإن كانتا متصلتين متحدتين «فالأولى لتقریعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال، والثانية للتقریع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآیة العظيمة، وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذکر القتل لأنه لو عمل على عکسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض فی تشیة التقریع»^(٢)

والقصة الرمزية التي استخدمت الرمز الحسی أداة فعّالة فی مجریات الحدث، تستدعی التخيل والتجسیم وعمق التصوير لتشکیل الفكرة المجردة تشکیلاً يتلاءم مع مدرکات الإنسان، فالبقرة تجسید لموقف قصص تولدت منه أحكام تشريعية، والرمز فیها هو الجوهر الحی فی الحدث كله. فالبقرة نستطيع أن نقف عندها ونلم بهیکلها وصفاتها ولكنها فی القصة لیست هذا الشكل الخارجی فقط وإنما هی رمز وإشارة إلى المعنی العمیق الذی یحمل تشریعاً، ویبرز آیة، ویعنی بقصة بشریة، تثير الوجدان وتوضح بعضاً من أنماط السلوك الفاسد الذی یردعه العقاب، ویتوجب معه القصاص. ومن ثم فإن لفظ البقرة ینتهی فی الواقع المادی بمجرد التعرف إلیه، لخلوصه من الشكل الخارجی واقترابه من المعنی، لتظل برمزيتها قائمة وفاعلة بما تشعه من دلالات ومعان.

ویحمل الرمز كثيراً من المعانی والمشاعر والأحكام وأنماط السلوك، ومن ثم فهو وسیلة وظلیفیه فی کل فن عظیم. ذلك أنه من سمات الأداء القرآنی فی القصة اتباع طريقة تصوير المعانی الذهنية والحالات النفسية فی صور

١ - صفوة التفاسیر ج ١، ص ٦٩

٢ - الکشاف ج ١، ص ٧٦.

حسيّة، حتى لتبدو كأنها حاضرة شاخصة. وهذه الطريقة التعبيرية (تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى، ومن الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس ومن الوجدان المنفصل بالأصغاء والأضواء.. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس)^(١)

وجو القصة مشبع بالخوارق التي تتمثل في إحياء القتيل. والبعث بعد الموت يؤلف ركناً أساسياً في بناء العقيدة. وبابتعاد الإنسان عن هذه الفكرة الإيمانية تتوحش فيه المسالك. ولاشك أن القصة تكشف عن طبع يهودى ورث روح التمرد والنفاق والاستهزاء، ودأب على الفتنة والدسّ. وصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم».

«والعبرة من هذه القصة الرمزية: هي أن الله بالمرصاد لكل ظالم، وهو آخذة مهما حاول من اختفاء واحتيال، وفاضحه على رؤوس الأشهاد...»^(٢)

إن دراسة الإشارات الرمزية في القصة القرآنية تكشف عن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة وارتباط الجانب العقيدى بالنفسى. والقرآن يتخذ الأسلوب الحكيم المعجز للتدريب والتعليم والتربية ويثير فى المسلم كوامنه الإدراكية العاقلة فيجعله يواجه مشاكله المختلفة ويتصدى لها فى ضوء ما أبرزه القرآن من قيم وأحكام وتوجيهات.

١ - التصوير الفنى. سيد قطب، ص ٢٤٢

٢ - القصص الرمزية فى القرآن - أحمد محمد جمال، ص ١٢٧.

مَدِينَةُ مِنَ النَّفْسِ

● بسط القرآن الكريم الحديث عن النفس الإنسانية وبين أن عمل الإنسان من خير أو شر إنما يرجع إلى النفس، وإليها يكون الثواب والعقاب، وللنفس حضورها في الجنة والنار ذلك لأنها ذات شأن عظيم في سلوك الإنسان وفي هدايته وضلاله. والنفس هي جوهر الإنسان وقيمه، وإليها وبها يكون صلاحه وفساده. فمن نفس الإنسان توجد أنسام الطمأنينة والخير ومنها أيضاً تنور الأعاصير المهلكة.

ولقد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة: هي النفس المطمئنة وهي النفس التي تؤمن بالله وتستحضره في كل موقف. وهذا الذكر الدائم يفيض على النفس أمناً واطمئناناً.. إنها النفس التي سكنت ريح أهوائها وما تسول به من وساوس ونزغات الشيطان فيأمن المرء وتسير به الحياة في رخاء بلا اضطراب أو جنوح.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد (٢٨).

أما النفس الأمارة فهي المقابل للنفس المطمئنة إذ تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيناً. إن أعدى أعداء الإنسان هو نفسه التي بين جنبيه فهي مدخل الشيطان إليه. إنها الوحش الضاري لا تأنس إلى خير ولا تأوى إلى أنيس (فهي نزاعة للشر، داعية إلى العدوان متهجمة على الحرمات). ومع ذلك فإن

لهذه النفس الأمانة علاجها وتطبيبها من داءها. ولا يكون العلاج إلا بذكر الله والرجوع إليه. قال تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يوسف ٥٣.

والنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على ما فرط فيه. وهي «لا تسكن إلا قلب المؤمن بالله المراقب لجلال سلطانه وما يخشى من سطوة عذابه سبحانه يوم يقوم الناس لرب العالمين في موقف المسائلة والمحاسبة وفي مقام الثواب والعقاب». قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١.

فالنفس اللوامة لاتزال على شيء من الفطرة السليمة ونقاؤها فإذا طاف بها طائف من الإثم هاجت حتى تتخلص منه وتعود إلى رحاب الله نقية كما كانت صافية كما خلقت.

● ولقد عالجت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكتها المريضة حتى تضرب للبشر العبرة وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الإنسانية بين الخير والشر، وهما قوتان تتصارعان منذ أن همس إبليس لآدم أن يعصى ربه. كما عالجت جمال النفس واطمئنانها وقيمها وأخلاقها ومناحي السمو فيها. وكذلك سماتها في حالات الضعف والسقوط والتدنى.. ولقد ضربت لذلك نماذج للنفس الخيرة الكريمة التي تعلو على مفاسد الدنيا وأهواء الذات البشرية فتعلو ويعلو معها الخير، وتورق وتثمر معها أغصان الحياة فضائل وأخلاقاً. ومن خلال هذا اللون من القصّ تأتي الأحكام التشريعية لتعديل السلوك وتقييمه وضبط العاطفة والانفعال..

ويجدر بالذكر التأكيد على أن (أول صورة للعاطفة الأخلاقية هي الشعور بالمنوع والمكروه. فقد كانت الأشياء في الجماعات الابتدائية منقسمة إلى ممنوع ومطلوب، وحرام وحلال. فأدى وجود المنوعات والمحرمات إلى إيقاظ شعور الإنسان بشخصيته وإرادته. لقد كان هذا المنع.. منعاً خارجياً فلما ارتقت الحياة الاجتماعية أدى ارتقاؤها إلى استبدال الرادع النفسى بالمانع الخارجى، وصارت النفوس ترجع عن غيها لا خوفاً من عقاب، ولا طمعاً في ثواب، بل لأن لها منها زاجراً) وهذا التبدل يعنى أن شيئاً يتحول ويتبدل من السيئ إلى الحسن. وقد ينشأ هذا التغير من موقف عنيف أدى إلى الزجر،

وقد يستمر الأمر دون تغيّر ملموس مما يستدعى وجود الرادع الخارجى حتى
تربى النفوس على تنمية رادعها الداخلى.

ووراء النفس البشرية حياة متلاطمة قليل منها يظهر والكثير مؤلف من
أهواء دفينية وأحلام مكبوتة، وكله مطمور تحت قشرة الوعى الرقيقة. وهذه
التراكمات تؤثر على الذات وعلى السلوك، حيث تظهر حالات القلق والقهر
والألم وعقد النفس والأمراض العقلية النفسية والعصبية.

وقصة قابيل وهابيل نموذج قوى على إيجازه، إذ قيلت القصة دفعة واحدة
ولم تتكرر كعادة القصص فى القرآن، وكشفت عن أغوار النفس المظلمة، وعن
حدة الصراع بين قوى الخير والشر. ولقد كان مدار الصراع بين الأخوين هو
الأنثى بما يوحي بأن العاطفة غير الناضجة تجاه الأنثى تؤدى إلى الهلاك
وتكشف عن مشاعر غليظة كالغيرة، والحق قد تؤدى إلى الإساءة إلى النفس
وإلى الآخرين وتسرع بصاحبها إلى الجنوح الأخلاقى. وكان الحكم التشريعى
إحياء للبشر واستمرارا للحياة.

الدعوة إلى كريم الأخلاق

أبرزت القصة القرآنية النموذج الطيب للمعاملة الإنسانية السليمة والسلوك النموذجي الذي يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم. وبينت القصص أن دعوة الأنبياء دعوة إلى الخير، وإلى حسن التعامل، وإصلاح الفعل، وتقويم النفوس وتهذيب الأخلاق، وعمارة الأرض والتحذير من إفساد الحياة وتخريب النفوس.

وإذا وردت هذه القيم الأخلاقية عبر السياق القصصى تسربت إلى النفوس وتمكنت منها وشكلت أبعادها. ولاشك أن التربية الإلهية للأنبياء التي تتمثل في أن الابتلاء الإلهي يقوى العزائم، ويبعث على المغفرة والرضوان والمحبة، ويحيى فيهم الشعور بالضعف أمام قوته وبالدلة أمام عزته، وبالرجاء في استجابة الدعاء. وكان من (أثر هذه التربية الروحية في نفوسهم أن صاروا عنوان الأمانة والصدق والنزاهة ومثال الإخلاص لله والعمل في سبيله دون طمع أو منفعة شخصية في الدنيا) ^(١).

ولا عجب في ذلك فهم رسل أديان.. وكذلك فهم مؤسسو حضارة واجتماع وأسلوب جديد في الحياة يقوم على التوحيد، والمساواة، والعدل، والأمانة، وكل قيم أخلاقية جميلة. وهو ما يؤدي إلى التوازن في الإنسان غير الأسس الثلاثة: الروح والعقل والجسم.. والأمر الذي يعطى هؤلاء الأنبياء القيمة

١ - سيكولوجية القصة في القرآن - د. التهامي نفرة ٥٥٣.

والمثل - فضلاً عما سبق - أنهم بعثوا فى البيئة التى عاشوا فيها مع أقوام ليسوا غرباء عنهم. وفى هذه المواجهة يتزود الأنبياء بمعرفة دقيقة للنفس (ومساربيها، وللتربية الملائمة لبيئتهم وعصرهم).

وفى القرآن الكريم تذكير دائم للأنبياء مع أقوامهم وهو ما يؤدى إلى خدمة الدعوة ومؤازرة المؤمنين. قال تعالى فى قصة صالح: «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض» الأعراف ٧٨.

وفى قصة شعيب مع قومه نموذج لهذه الدعوة إلى قيم الحق والخير والصالح. ولقد دعاهم إلى التوحيد، وإلى الوفاء فى الكيل والميزان، وإعطاء كل ذى حق حقه والبعد عن الفساد. قال تعالى: «والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به تبغونها عوجاً، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين» الأعراف ٨٥ - ٨٦.

ولقد تضمنت القصة حواراً يدور بين النبی الداعية والقوم المبعوث إليهم.. ودار حول التوحيد وأنواع الخير وحسن المعاملة، كإيفاء حقوق الناس، والأمانة، وعدم ترويع المؤمنين بالجلوس فى الطرقات. قال (ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه.. على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله).

ولم ييأس شعيب مع قومه فهو حريص على إصلاح الفساد فى نفوسهم ومعاملاتهم، فكرر الدعوة ولكنهم قاوموه فى اصرار فحق عليهم العذاب.. إنه يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشئ من العدل، فلا يفتوا المؤمنين ولا يستعدوا لهم ولا يتوعدوهم، لقد دعاهم إلى أعدل خطة - كما يقول سيد قطب: «ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والترث والتعايش بغير أذى.. حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»^(١).

قال تعالى: (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا..). أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد. قال يا قوم أرايتم

إن كنت على بينة من ربى ورزقتى منه رزقاً حسناً. وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) هود ٨٧/٨٨.

وفى هذه الآيات ضرب المثل بالقدوة، ففى مجال النصيحة وحسن المعاملة تصبح القدوة مفتاحاً إلى القلوب المغلقة، والنفوس المطموسة. ومن ثم فقد أوضح شعيب لقومه أنه ليس من العقل أن ينهاهم عن شىء ويرتكبه هو، وإنما هو يأمرهم بما يأخذ به نفسه. وهو حين يأمرهم بالتوحيد ويترك البخس فى الأموال والموازين إنما يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. إنه يؤكد فى وضوح قائلًا: «لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشىء فأنا أول من يتركه. وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هى الصفة المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم وخطبائهم الجاهلون.. وأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب فحالهم كما قال نبي الله شعيب (وما أريد أن أخالفهم إلى ما أنهاكم عنه) ^(١) ولقد حذرت الآيات - على لسان شعيب - من العذاب الذى حاق بالأمم السابقة وهى تعاند وتعلن عن كفرها، كقوم نوح أو قوم صالح «وما قوم لوط منكم ببعيد» وتمادى القوم فحق عليهم العذاب (وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ..

ولقد استجاب الله دعاء نبيه وأزره بنصره إذ جاءت القوم «صيحة من السماء وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ففزعوا لهول ما رأوا وأزهقت أرواحهم وهلك نفوسهم). وأعرض شعيب عن قومه حزناً على مخالفة قومه لدعوته ونصيحته.

والقصة كما نرى تبين ضرورة مراعاة الأمانة فيما يتصل بشئون المال خاصة إذا كان القوم أهل مال وتجارة. وهم فى ذلك يشبهون أهل مكة وسراتها من التجار والأثرياء فى عهد رسول الله وكانوا يتعاملون فى أموالهم بالبخس والريا، فكان إيراد هذه القصة تسرية للمسلمين عن سوء المعاملة، وبياناً للمسلك المالى الخاطىء الذى يسلكه كفار قريش.. فشئون المال لها صلة وثيقة بالسلوك الدينى وبمبدأ الاعتقاد السليم.

١ - قصص الانبياء ابن كثير ج ١ تحقيق د. مصطفى عبدالواحد.

ولعل صفة العذاب أن تكون رادعاً لكل من يخرج على النظام الدينى الذى يوحى به الله سبحانه فالرجفة والجثوم جزاء مقابل للعتو والعناد (فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك. وما أجدر العاتى أن يرتجف وما أجدر المعتدى أن يعجز جزاءً وفاقاً.

ولعلنا نلاحظ أيضاً نوعاً من الإطالة فى قصة شعيب بالقياس إلى نظائرها، ذلك أنها تتضمن مع التوحيد أموراً فى المعاملات، وإن كانت القصة تمضى وفق المنهج القرآنى فى سرده للقصة. حيث تبدأ بالدعوة وتلجأ إلى المواقف ثم العقاب.. وتتأكد القيمة فى سنة الله الجارية التى تتمثل فى مصارع الكافرين ونصرة المؤمنين.

ولاشك أن تحقيق هذه القيم السابقة إنما ترسخ قيمة كبرى وهى العدل. ولقد أبرزت القصة القرآنية أهمية العدل فى سياسة الأمم. ولقد وصف الله نفسه بالحكم العدل. وأشارت القصص إلى المقياس الحقيقى للحكم العادل وهو اتباع الحق، والبعد عن الهوى. ذلك أن الهوى جامع يؤدى إلى الشطط فى الأحكام، واحتمال الوقوع فى مظلمة الناس. ويجب أن يتصف من يقوم بالحكم والتقاضى بالإيمان والعلم والحق والبعد عن الهوى، وأن يكون حكمه واحداً فى حالتي الرضا والغضب.

وحين تورد القصة فى القرآن هذا اللون من السلوك فإن التأثير فى المتلقى يكون قوياً ويجعله واعياً بمجريات الأمور.. وكذلك تساعد على تطهير المشاعر وإعلائها.

بين التاريخ والدين

تشير الرواية التي تستقى مادتها من التاريخ.. عدداً من التساؤلات قد تتضمن تنوعاً في الرؤية وقد تتعارض لكنها لا تتصادم لدرجة الإزاحة أو الإدانة، وتلك طبيعة الأعمال الأدبية الكبرى.. فما بالنا بالأعمال التي تتناول قصص الأنبياء وحركتهم التاريخية والدينية! إنَّ على الأعمال الروائية التي تتخذ من تاريخ الأنبياء مادة لها - تعج بالحياة والحركة، وتحتدم كالملاحم، وتبرز وجهة النظر - كالجدل التاريخي - في تطور الأجيال والأفكار، والصراع بين العدل والظلم، والحرية والاستبداد.. والإيمان والفكر المادى - أن تلتزم بالقيم والرموز الكلية بما تمثله من معان سامية تسعى إلى إصلاح الذات والمجتمع معاً، وتكشف في النهاية عن المعنى العظيم الذي يختزل تلك القصص جميعاً في عمل واحد.

والإقدام علي مثل هذا التناول الأدبي تكتفه محاذير كثيرة لعل أخطرها تفسير الرموز تفسيراً معاكساً لما هو حقيقى، ذلك أن الافادة من الحقائق تختلف عن الإفادة من الفولكلور الشعبى مثلاً، أو من الأساطير. وعلى هذا فلقد أصبح الجميع يخشون الاقتراب من قصص الأنبياء - تلك الكنوز العظيمة - خشية الوقوع فى المحاذير وفضلوا استيحاء شخصيات من التراث أو الأساطير.

لكن الكاتب الكبير نجيب محفوظ أقدم على خطوة جريئة واختزل هذا العالم كله فى رواية واحدة هى (أولاد حارتنا).

ولقد كتب المبدع الكبير روايته بعد فترة انقطاع طويلة بدأت منذ قيام الثورة ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٥٩. سبع سنوات كاملة توقف فيها عن الإبداع. ثم بدأ بعد هذا الانقطاع التأمل مشروعه الروائي المتجدد، والمتجاوز.. لقد كانت فترة نشر الرواية مسلسل في الأهرام فترة يتم فيها التحضير إلى التحول الاشتراكي ثم إعلانه وسيطرته على أجهزة الإعلام والثقافة.. ونفى أو تضليل الفكر الحر والديني معاً.

ونحن إذ نرصد زمان الإبداع نؤكد على السياق التاريخي الذي ظهرت فيه الرواية. كما أن الإطار المرجعي للأديب الكبير يتمثل في فكره الفلسفي وتأثره بالمذهب الطبيعي وبآراء سلامة موسى التي كانت تدعو إلى الاشتراكية ونظرية التطور وحرية المرأة.. وكذلك الإلحاح على فكرة الحرية والعدل الاجتماعي والشوق إلى العدل والحرية يتسرب عبر الرواية في مواقفها وشخصياتها.. وجسدت الرموز الإبداعية هذا المعنى الكبير.. فالرواية عمل ملحمي مصوغ على مستوى الرمز الكلي صياغة أدبية منذ الخلق الأول وحتى عصر التنوير الحديث. وهي تتضمن رموزاً مثلية - إن صح التعبير.

والتاريخ مصدر هائل للكاتب قديماً وحديثاً. وهو مع هذا يحمل في زخمه الثرى خطورته إذا ما تلون الاستدعاء التاريخي بلون مغاير لموضوع حركة التاريخ الحقيقي والممثل في الرموز الكبرى أو رضح لتعسف فكري ما.

سئل نجيب محفوظ عن الواقعية الجديدة عام ١٩٦٢ وعن إفادته التاريخية فقال: «الباعث على الكتابة أفكار وانفعالات معينة تتجه إلى الواقع لتجعله وسيلة للتعبير عنها. فأنا أعبر عن المعاني الفكرية بمظهر واقعي تاماً».

ولقد خضعت الرموز المثلية في الرواية لفكر الكاتب ورؤيته ومرجعياته الفكرية، دون أن تلتزم بما ورد في الحقيقة. وتتأكد المغايرة فيتحطم الرموز الديني ويفرغ من جوهره في إتقان حرفي باهر - وليس ذلك عيباً - وسرد روائي مؤثر، وواضح - كأنما يخشى الكاتب ألا يفهم - الربط بين الأحداث والأشخاص ربطاً محكماً يوجي بوجهة النظر فتتحول الرواية إلى رواية مقنعة، تقنع التاريخ وتورّيه رمزاً، ولفظاً وسباقاً، مما يعني أن القراءة للنص الروائي تصبح ذات بعدين بحيث يقارن المتلقى بين ما يقرؤه وبين ما يقابله تاريخياً. وإذا كان الكاتب - عموماً - يلجأ إلى التاريخ كحيلة فنية حية (لا

يتمكن من قول ما يريده مباشرة خصوصاً إذا كان هذا القول يمس وضعاً قائماً تحرص السلطة على ألا يمس. ومن ثم ينتقل بالعمل الأدبي إلى زمان آخر أو مكان آخر...) فلا يحق له قلب الحقائق أو تغيير الثوابت حتى لا يضحى التاريخ مداناً، وتتحول الحركة الدينية من خلاص إلى عبء، ويصير المضمون النهائي الذي يختزل حركة الأنبياء مجرد هباء.. ومن ثم يتأكد التوجه نحو فكر مفاير يُعلَى من العلم وأبحاثه ومعامله، ويعتبره الوريث الصحيح لحركة التاريخ.

الإداء التصويرى ودلالة الألفاظ

التصوير هو السمة المميزة فى القرآن الكريم، وهو أحد الملامح التعبيرية الأساسية فى الأسلوب القرآنى، هذا الأسلوب اتخذ تفرد من العطاء اللغوى نفسه الذى عرفه العرب القدماء، فالألفاظ والتراكيب والصياغة النحوية هى ما تواتر فى أصول اللغة.. وهى التى عرفها العرب معرفة فطرية دقيقة.. ومع ذلك فإن القرآن الكريم تحدى حملة القول وأصحابه بالقول نفسه، فلقد تحداهم بالأداء التعبيرى الفذ.. الذى قصرت عن إدراكه أقوى العقول وأصفى الألسنة.. فالأسلوب القرآنى.. هو جوهر التحدى وهو رمز المعجزة ووسيلتها وشرفها.. وهو ذو خصوصية متفردة وهو نمط فى الأسلوب الأدبى بلغ حد الإعجاز ومن ثم كان التأثير النافذ والمتغلغل فى أعماق النفس.

والأسلوب فى بنائه التعبيرى يعتمد على عناصر كثيرة منها.. الألفاظ.

والألفاظ فى أسلوب القرآن لها جمالها المميز، ووقعها النغمى.. وتتأسقها الكامل مع المعنى، واثتلافها مع دلالات المعانى المصاحبة.. بحيث لا نستطيع أن ننزعها من مكانها، أو نأتى بمرادف لها، إنها متماسكة مع أخواتها، متلاصقة مع رصفائها، متحدة فى السياق، ومتمشية مع المعنى والغرض.

إنها - كما يقول الجرجانى فى دلائل الإعجاز - كل كلمة تقف مع أختها، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى فى معناها، ما اثتلف السياق ولا انسجم الأسلوب.

نرى هذا الاتساق فى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل» التوبة ٣٨.

فكلمة (أثاقلتم).. فى أدائها الفنى، توحى بظلال المعانى المصاحبة «لفعل الكلمة».. إن نظام الحروف فى الكلمة ينبئ عن المعنى المراد.. فالتشديد والمد والوقف يوحي بالتثاقل الشديد.. وكأنما حركة الفعل تتجه إلى أسفل.. الأرض، فى الوقت الذى كان يجب أن تتجه فيه إلى الأعلى.. مفارقة الأرض.. وكأنما بين هؤلاء والأرض خيط غليظ يربطهم بها.. فلا يستطيعون أن ينفكوا منه.

وهى فى الدلالة نفسها توضح نفسية بعض المسلمين حين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى غزوة الروم.. فكشفت عن المتثاقلين، المتباطئين فى تلبية النداء.. ولقد وردت المفردة (أثاقلتم) فى سياق تعبيرى يرفد المعنى المراد ويكشف خبايا النفس، فثمة استفهام فى الآية الكريمة، خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى.. هذا المعنى يراد به التقرع والتوبيخ.. ومعنى هذا أن ثمة فعلاً مذموماً، استدعى أن تقوم الآية بتوبيخ ما موجه إلى المؤمنين.. ولاشك أن كلمة (أثاقلتم) توضح لنا هذا السبب، وكشف لنا الفعل الذمى الذى استدعى توبيخهم.. إنه لفعل جسيم.. إن التباطؤ عن الدعوة.. جرم لا يغتفر.. والنكوص عن الغزو فعل أدانته الآية.. ومن ثم كانت مفردة (أثاقلتم) هى المفردة المتلائمة مع المعنى، وإذا نزعناها أو أتينا بكلمة مترادفة فى المعنى معها.. ما كان للسياق من تأثير، وما كان هناك ارتباط بين الاستفهام التقرعى ودلالة الفعل المجرم.. وما انكشفت لنا هذه الظلال، من المعانى المصاحبة للكلمة، وهى إذا كانت تحمل التقرع.. فهى تحمل العتاب.. وفى كل الحالات فهى كشف لجوانب نفسية غائرة فى نفوس المسلمين الذين تباطأوا فى الدعوة إلى الجهاد وغزو الروم.

ثم نجد تضافر الكلمات وتناسقها وتآزرها فكلمة (أثاقلتم) ترتبط فنياً ومعنوياً ودلالياً.. بعبارة (متاع الحياة الدنيا) فالبارة تفسير لحركة التثاقل البطيء المشدود إلى الأرض شداً.. إنه الميل إلى متاع الدنيا وعرضها.. ونسيان متاع الآخرة.. وورد الاستفهام مرة أخرى ليرفد معنى الاستفهام الأول

ويقويه، فثمة توبيخ وثمة عتاب.. على الموقف الذى وقفه المؤمنون من الغزو.. فما المتاع المستحقر سبب فى النكوص، وما هو سبب فى التثاقل، لأنه متاع زائل.. لا قيمة له إذا قيس بمتاع الآخرة.

وعلى هذا فإن كلمة (أثاقلتم) جاءت فى الأسلوب القرآنى متفردة متميزة من حيث البناء الصوتى ومن حيث المعنى، ومن حيث ظلال المعانى المصاحبة.. مما يؤكد على أن المفردة القرآنية.. لا تغنى عنها مفردة لغوية أخرى.. فهى محكومة بالبناء القرآنى.. ودلالته التعبيرية.. المتفردة فى تآلف منسجم.

وتآلف المفردة لا يأتى فقط من ناحية النسق والجرس الصوتى، بل يشمل كما رأينا، التآلف فى المعانى، والتماسك.. فى البناء، والتأثير بالمعانى المتداعية.. وهذا التأخى والتآلف والتماسك فى الألفاظ والمعانى واضح فى كل آيات القرآن الكريم.. فمعنى كل لفظ يمهّد لمعنى اللفظ الآخر.. فلا تنافر فى الألفاظ ولا تنافر فى المعانى.. ومن ثم ينساب الأداء القرآنى فى النفس كالماء المترقق العذب.

ولنأخذ نموذجاً آخر على تفرد المفردة القرآنية، قال تعالى: «وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم» البقرة: ٤٩، والآية القرآنية تذكير لنعم الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل، حيث نجاهم الله من بطش فرعون وأهله، فقد كانوا يلاقون أشد العذاب وأفظعه، من ذبح الأبناء من الذكور واستخدام الإناث للخدمة والعمل.. فرفع الله عنهم هذا البلاء المهين.. وتلك نعمة يجب على بنى إسرائيل أن يذكروها دائماً.. ولقد عكست الألفاظ القرآنية المهانة التى كان عليها بنو إسرائيل، وجاءت الألفاظ متضافرة مع رصفائها، بحيث نعجز عن الإتيان بمرادف لها لأن المرادف هنا، لفظ بشرى، وهو لفظ قاصر مهما أوتى من فصاحة وبلاغة.. ففى كلمة «يسومون» نجد المدّ الذى يوحى بالاستمرار والتواصل.. فالنطق الصوتى يستغرق زمناً طويلاً نسبياً، مما يعكس حالة العذاب التى طالت على بنى إسرائيل.. وهى من حيث الترادف اللفظى.. فإننا نعجز عن إتيان كلمة تؤدى المعنى نفسه، ونفس الدلالات المصاحبة لها.. فكلمة مثل (يذيقون) أو كلمة (يولون).. لا تحمل دلالة المعنى فى المفردة القرآنية.. فهى تعنى شدة الظلم وقسوة الخسف ببنى إسرائيل

ومداومة العذاب.. ولذلك فمجيئها فى النسق القرآنى دليل على ما لقيه بنو إسرائيل من عذاب شديد ومهانة ذليلة على يد فرعون.. وكأنهم مطالبون دوماً به.. ومن ثم تضافر المعنى تضافراً مع مفردة (سوء العذاب).

ويرى الزمخشري فى هذا الموقف (ومعنى سوء العذاب.. والعذاب كله سيئ - أشده وأفظعه، كأنه قبَّحه بالإضافة إلى سائرهم..) ^(١) وكلمة «سام» تؤدى إلى دلالة المعنى فى سوء العذاب وتعلو بها إلى بيان ألوان العذاب الشديد.. مما تبرزه الألفاظ الأخرى.. فكلمة (يذبحون).. جاءت بياناً لكلمة «يسومون» و«سوء العذاب» ولا بد أن تتضمن قوة هذا العذاب الدائم المستمر.. وشدته.. فجاء التشديد دلالة على المراد.. وورود الكلمة (يذبح) يعنى إسناد الفعل لإرادة العمل، والإصرار عليه بخلاف لو غيرنا الضبط لتصبح (يذبح).. هنا تحمل الكلمة معنى الذبح الخاص بفاعل الفعل بحيث تنقضى فيه إرادة الفعل والإصرار عليه وانسحابه على الغير بكثرة.. ومن ثم تصبح مفردة «يذبحون» عاكسة لتاريخ الفعل نفسه والخاص ببنى إسرائيل أو اليهود فى مصر فى ظل فرعون.. حيث إن الكهنة أُنذروا فرعون بأن مولوداً سيولد وسيكون فى مولده هلاكه.. ومن ثم تصبح الكلمة جامعة.. للسياق اللفظى والتاريخى معاً.. وتأتى مفردة «يستحيون» لتكشف جانباً آخر من البلاء.. فثمة قتل وثمة حياة.. ولكن الحياة هنا لا تقل بشاعة عن القتل.. إنها الحياة الذليلة التى تحول النساء من كريمات شريفات إلى خادمات.. مملوكات رقبة وعرضاً، مما توحى به أشد الإيحاء على مدى الهوان والذلة التى عاش فى ظلالها اليهود فى مصر.

إن اللفظ المفرد له بلاغته الخاصة فى إطار الأسلوب.. والائتلاف بين الألفاظ والمعانى واضح فى كل الآيات القرآنية.. فنحن لا نجد إلا التوحد والتكامل بحيث تمهد الكلمة الطريق إلى معنى الكلمة التالية.. فى انسجام كامل.. فلا تتافر فى المعانى، ولا تتافر فى الألفاظ.

ومن جماليات الأداء القرآنى ذلك الاتساق والائتلاف الكاملين.. فنحن فى قراءة القرآن نواجه بذلك اللحن السماوى المتنوع المتجدد فى آن واحد.. فيبدو الجمال اللغوى ماثلاً له وجوده وأثره البين فى النفوس.

١- الكشف ج١، ص ٦٨.

(إن دقة التعبير القرآني ومثانة نظمها، وعجيب تصرفه يؤدي المعنى الثرى في اللفظ القاصد النقي).. ولنأخذ نموذجاً من قوله تعالى في سورة البقرة: قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزْمِنُ اللَّهُ بِمَا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩١.

إن الآية الكريمة تكشف عن طبيعة اليهود التي تتميز بالحققد والحسد وترتمى في نطاق التعصب الشديد، فنحن هنا أمام عنادهم تجاه الإسلام، فهم لا يؤمنون بالقرآن والإسلام، متذرعين بأن ما أنزل إليهم فيه الكفاية، وأنه الحق. والقرآن الكريم يعجب من هذا الموقف المعاند.. فهم قد كفروا من قبل بأنبيائهم وما جاءوا به، وأنهم كثيراً ما قتلوا أنبياءهم: والآية القرآنية جزء من قصة بنى إسرائيل.. وموقفهم من الإسلام.. حيث تتداعى الآيات بعد ذلك بقص حكاية موسى عليه السلام معهم.

والأداء التعبيري في الآية يتضمن أنساقاً مختلفة فثمة دعوة ناصحة لليهود إلى الإيمان بالقرآن، ثم إجابتهم على هذه الدعوة بما تنطوى عليه من عناد ومغالطة.. وأخيراً الرد الملائم على إجابتهم بما يفهمهم ويرد عليهم حاجتهم.

وأول ما نلاحظه هو الإيجاز الكامل.. والقصد اللفظي الواضح، والذي يحمل كثيراً من المعاني والدلالات، فعبارة (آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ).. حملت معاني كثيرة، واستخدمت الكناية دون اللجوء إلى التصريح.. إن الدعوة إلى الإيمان بالقرآن مرتبطة بما يردده اليهود من أنهم آمنوا بالتوراة، والقرآن أنزله الله على محمد كما أنزل التوراة على موسى، فلماذا الإيمان في جانب والكفر في جانب آخر؟ وعبارة «بما أنزل الله» تعنى القرآن.. كما تعنى محمداً صلى الله عليه وسلم وهو جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة.

إن تلك الإشارة إلى القرآن وهذا الحذف الخاص بمحمد، يعنى أن الإسلام له طابعه الخاص وهو (أنه ليس دين تفريق وخصومة.. بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان.. داع إلى الإيمان بالكتب كلها على السواء).. كما أن الحذف يدل على أن إلقاء الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويشير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح.^(١)

١- النبا العظيم د. محمد عبدالله تراز، ص ١٢٠.

ولقد أدى الإيجاز الكامل إلى إبراز هذه الدلالات المصاحبة.. للفظ.. وكلمة (ما وراءه) توضح فى جلاء كامل.. أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا كذلك بالإنجيل المنزل على عيسى وكلاهما وراء التوراة.. ولكنهم لم يكفروا بها جاء قبل التوراة من صحف إبراهيم.. مما يؤكد أن استعمال اللفظ فى إيجازه جاء جامعاً مانعاً.. وتأتى مفردة «الحق» ومفردة (مصدقاً).. لتبيننا فى جلاء كامل.. ما تحملا لانه من معان وظلال.. فالقرآن حق كما أن التوراة حق.. فكيف يكون الإيمان فى جانب (التوراة) كفراً فى جانب آخر (القرآن)؟.. إن القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب/التوراة.. فى زمنهم وفى أيديهم.. بل وفيما يدرسون منه، فبماذا يعتدرون؟ وأنى يذهبون؟.. ولاشك أن كلمة «لما معهم» وشت بهذا المعنى كله.

إن كل كلمة كانت (بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت فى خطوة واحدة، وفى غير ما جلبه ولا طنطنة).. وتنتقل الآية إلى معنى آخر وهو قتل الأنبياء.. ولكن الانتقال جاء بعد أن وضحت الألفاظ والمفردات الشاهد التاريخي، والحالة النفسية.. وهذا الانتقال جاء بعد أن استعدت النفس له، إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم، أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه) ولقد استخدم القرآن كلمة (تقتلون) فى صيغة الفعل المضارع لاستمرار دلالة الفعل وحضوره، وكأنما هى تصوير لواقعهم.. الواقع الملوث بالدم. وهكذا ندرك أن القرآن الكريم يستثمر أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى.

إن اللفظ القرآنى يشع جمالاً وأداءً وإن (كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية تصور المعانى كالصورة الكاملة فى تصويرها، التى تتكون أجزاؤها من صور وتتجمع من الصور صورة متسقة)^(١)، ولنأخذ نموذجاً على ذلك:

قال تعالى «وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» النحل: ١١٢.

والمثل هنا مضروب لتصوير حال مكة وتقريب صورتها فى إطار من

١- القرآن المعجزة الكبرى، ص ٩٦.

التصوير الذى يعطى للصورة إطارها المكانى الدال.. وبحيث تنطبق الدلالة الواردة فى المثل.. على المراد إبرازه، وهو تصوير الأمن والأمان ورغد العيش فى مكة.. فى جانب من جوانب الصورة، جانب زهوة الحياة وجمالها المتألق واطمئنان النفوس وراحتها..

ولقد عكست الألفاظ هذا الجانب من الصورة/المثل.

فالآية أسندت الأمان إلى القرية، مما يشعر بالعموم والشمولية.. كما يعطى للقرية/المادة، حركة الشعور الذاتى والإحساس الداخلى بالأمان.. فكلمة آمنة: تعنى شيوع الأمن والسلام والابتعاد عن الخوف، إن اختصاص القرية بالأمن يعنى حياة هادئة وادعة يشملها سلام وأمان.. ويتواصل الأداء التعبيري القرآنى فى تناسقه الرائع ليوضح الصورة النفسية لأهل القرية الآمنة: فكلمة «مطمئنة» تعكس لنا هذا الجانب النفسى المتعلق بداخل الإنسان ومشاعره ووجدانه.. فثمة سلام ودعة وأمن واطمئنان قلبى.. وفى هذا الجو الآمن الساكن، يأتى الرزق رغداً هنيئاً.. من مصادره المتنوعة فيضاف إلى الأمن والطمأنينة، أمن آخر له دخل بالذات، وهو توفر المثونة والطعام، بما يجعل القرية سيدة نفسها، قوية بما تمتلكه.. هذا هو الجانب الأول من الصورة/المثل.. وهذا الجانب ينطبق على حال مكة تمام الانطباق، وكل جزئية من الصورة العامة تضاهى جزئية من الصورة المراد التعبير عنها.. والتعبير/المثل الحسى أدعى إلى التأثير فى النفس، وتوضيح الفكرة، وتوضيح المعنى توصيلاً كاملاً، يستحوذ على حواس الإنسان ومنافذ إدراكه.. إنها حال أشبه شئ بحال مكة (جعل الله فيها البيت.. وجعلها بلداً حراماً.. وأهل مكة.. آمنون مطمئنون، كذلك يأتهم رزقهم هيناً هنيئاً من كل مكان من الحجيج ومع القوافل.. مع أنهم فى وادٍ قفر جذب غير ذى زرع).^(١)

إن المفردات التى قامت بنقل هذه الصورة الكاملة، متألفة فى معانيها، منسجمة فى تراكيبها، متناسقة فى نظمها، وهى فى ذاتها تحمل الأداء التصويرى المشع فتبرز النعم الإلهية التى من الله بها على ساكنى القرية مما يستوجب الحمد والشكر.

ولكن واقع القرية اختلف فبدلاً من الإيمان وشكر الله، جاء الكفر والجحود

١- الضلال، ج ٤، ص ٢١٩٩.

بنعمه وهو الجانب الثانى من الصور العامة.. الصورة/المثل التى وردت بالآية.. ولقد عبرت الألفاظ تعبيراً موحياً عن هذا الجانب.. فأوضحت التضاد الذى يكتف الموقف كله.. ورسمت عن طريق الإيحاء والدلالة، الصورة المقابلة فى جانبها المعتم.

فنجده مفردة (أذاق) تعبر عن الضرر الذى مس نفوسهم.. والألم الذى احتواهم، خاصة أن التقابل جاء فيما يرتبط بالحياة نفسها، وهو الجوع وافتقاد المثونة.. مما يعنى أن العقاب جاء على قدر فعلهم، ففى أثناء الأمن والرزق الوفير جنح سكان القرية إلى الغرور ونكران الفضل، وتصوروا أن ما هم فيه جاء من أنفسهم فنسوا الله، فأنساهم أنفسهم.. ولتنظر إلى الأداء التصويرى الرائع الذى يشع من كلمة «أذاق»، لقد جعلت المفردة الألم وأثره والضرر وشدته، فى مقام الطعام المر، الذى ينفر منه الإنسان بمجرد تذوقه.. إن الصورة التشبيهية، توحى بقسوة الألم، وبأن الناس لا يملكون إلا أن يتجرعوا الألم.. لافتقاد الأمن والأمان.. إنهم فى مقام المضطرين على مداومة الحياة بتجرع غصص الألم والمعاناة. ويرفد المعنى تعبير بيانى جميل يوضح الإذاقة ودلالاتها.. ففى عبارة (لباس الجوع والخوف) تجسيد كامل مرئى وملموس لكل من الخوف والجوع.. إنهما -الجوع والخوف- لدوامهما يشبهان اللباس الذى يحيط ويشمل الإنسان.. وكأن هذه الإحاطة لا فكاك منها.. فهى مستمرة ومتجددة معاً.. مما يعطى المفردة «أذاق» استمرارية الشعور بالألم والمعاناة.. «فالتذوق» أعمق أثراً فى الحس. ويتداخل فى التعبير استجابات الحواس ويتحول المس من حركة اللمس إلى حركة متغلغلة فى النفس. يقول الزمخشري (أما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لها وقع، عبارة عما يفضى منهم، ويلابس، فكأنه قيل ما غشيهم من الجوع والخوف)^(١) لقد أوضح التعبير أن الألم مسَّ الجسم وأمضه بافتقاد الطعام وبسطوة الجوع كما تغلغل فى النفس بذهاب الأمن وبشدة الخوف.. فتضافر التعبير بالإذاقة والتعبير باللباس لتوضيح الصورة التى أصبح عليها سكان القرية بعد أن كفروا وجحدوا أنعم الله.

واختيار الألفاظ يتناسق مع الموقف المراد التعبير عنه.. مما يساعد على

١- الزمخشري ج٢، ص٣٤٦.

إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية.. فكلمة «حرث» مثلاً، تناسقت تماماً مع دلالة الحالة الزوجية، ومع الصورة الحسية المادية التي جمعت الموقف كله، مع إحياء عفيف يقتضيه المقام.

قال تعالى: «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» البقرة: ٢٢٣، فاللفظ فيه كناية موحية لطيفة عن ملاسبات زوجية، وفيه تصوير دقيق للعلاقة بين الزارع وأرضه والزوج وزوجته في مجال خاص جداً، وفيه إبراز لنتيجة العلاقة الموحى بها. فثمة نبت يخرج به الحرث، ونبت ينتج عن العلاقة الزوجية وفي كليهما عمران وفلاح.

ونقرأ قوله تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن) النساء: ٧٢، فنجد صورة التبطئة مرسومة بثقلها وبطئها وجرسها في كلمة (ليبطئن). ولعل التكوين الحرفي للكلمة بما فيه من حركات مشددة، وحركات تتراوح بين الضم والكسر والفتح، يعطى الثقل في النطق والأداء، مما يعكس الحرف نفسه حركة البطء الشديدة التي يوصف بها هؤلاء المتباطئون.. وترسم صورة دقيقة لتتبع الحركة.. وتعبثها.. ونقرأ قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ﴾ فاطر: ٣٧.

فنجد اللفظ، بما يتضمنه من حروف شديدة.. يصور الحالة تماماً.. فالآية وردت في سورة فاطر لبيان مآل الذين كفروا بربهم، فهم في نار جهنم يتصارخون ويستغيثون قائلين ربنا أخرجنا لنعمل صالحاً (ويرى القرطبي: أى نؤمن بدل الكفر، ونطبع بدل المعصية، ونمثّل أمر الرسل)^(١) فلفظة (يصرخون) يعكس حال الكافرين في جهنم، حيث يعلو صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء متمواج من شتى الأرجاء.. إنه صوت المنبذين وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعانى جميعاً إن الإيقاع الصاخب الذى يوحى به اللفظ يعكس الحالة تماماً (كما تلقى إليك ظل الإهمال لهذا الاضطراب الذى لا يجد من يهتم به، ونلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصورة كلها يكون ذلك فناً من التناسق الرفيع)^(٢).

إن الألفاظ القرآنية تأتلف مع أصوات الحروف، وتنسق معها في الأداء

١- صفوة التفاسير ج٢، ص ٥٧٨.

٢- التصوير الفني، ص ٩٢، ٩٣.

الموسيقى، مما يجعلها تشيع قدرا من التأثير الوجدانى الواضح فى النفوس وربما كانت حركة المفردة فيها ثقل وتراكم صوتى شديد.. مما ينفر من استخدامها لغوياً، ولكنها إذا وردت فى القرآن اتخذت السمات البلاغى المعجز، وتناسقت مع الأداء التعبيرى الكلى وحملت المعنى والدلالة حملاً جمالياً مؤثراً.. ولقد أدركنا ذلك فيما سبق.. ولكننا سنقف أمام مفردة غريبة، لم يحسن استخدامها إلا حين وردت فى القرآن الكريم إنها كلمة (ضيضى) فى قوله (تلك إذا قسمة ضيضى) النجم: ٢٢، وسياق المفردة ورد فى الرد على الكفار وتوبيخهم حين ادعوا أن الملائكة بنات الله.. قال تعالى: (ألكم الذكر وله الأنثى) النجم: ٢١، ومفردة «ضيضى» تعنى لغوياً.. الجور والفعل: ضاز أى جار.. واستخدامها نادر وغريب.. كقول الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

وورود الفعل فيه إيهام، فما بالك بالمفردة نفسها ولكن الكلمة جاءت منسجمة تماماً مع السياق والأداء، فسورة النجم جاءت فى آيات موجزة، ذات فواصل متكررة على حرف واحد مما جعلها مترعة بجو من الإيقاع الشامل، الذى يحتوى الحرف واللفظ والجملة، فجاءت الكلمة متناسقة مع هذا الأداء التعبيرى المنغم، كما جاءت متلائمة مع السياق.

يقول الرافعى: «فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها، الإنكار فى الأولى، والتهكم فى الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة»^(١).

إن جمال القرآن اللغوى ظاهرة اختص بها القرآن فى أدائه التعبيرى والتصويرى فى الحرف والكلمة والعبارة والسورة ومن شأن هذا الجمال اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ويحرك الوجدان ويمزج بين الدين والفن القولى مزجاً يختلط بمدارك الإنسان ووجدانه.

١- انظر كتاب التبيان فى علوم القرآن للصابونى، ص ١٠٧.

الصورة البيانية والإداء التصويرى القصصى

الصورة البيانية إحدى جماليات التصوير القرآنى.. فالبيان وسيلة تصويرية توضح المراد من المعنى، فى أشكال تصويرية مختلفة.. ولقد تعددت ألوان البيان، من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية ومجاز.. ولكن هذا التعدد المدرسى.. يقف عند حدود أطراف البيان.. بحيث تقف الصورة ساكنة.. قد يلفها الغموض أحياناً، أو الوضوح السطحى أحياناً أخرى، وقد يكتنفها التعقيد فى نواح أخرى.

أما الصورة البيانية فى القرآن فهى عالم بأكمله.. زاخر بالمعانى والأخيلة والوجدان، والمشاعر النفسية. تتحرك الصورة البيانية فى أداء تعبيرى معجز، وترفعها الحركة، واللون، والصوت، والصورة فى تضافر تام.. ولنأخذ نموذجاً للصورة البيانية.. والصورة التى نقدمها تتناول صفة مذمومة وهى الطمع.. وقد وردت فى نسق قصصى مما أحالها إلى حركة مشخصة فاعلة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ القلم: الآيات ١٧-٣٣.

وسورة القلم مكية، بل هى من أوائل السور المكية، وفى السورة بيان واضح عن العقيدة وعن محمد .. فالله يحتضن رسوله والفئة المؤمنة معه، ويواسيه ويشى عليه كما تبرز القيم الأخلاقية الكريمة، وتطمئن قلوب المستضعفين، وتحميمهم من جبروت الأعداء والأغنياء من كفار مكة وتعدهم جنات النعيم.

والآيات الكريمة تتناول فى إطار الاحتضان والتثبيت والموازرة، قصة أصحاب الجنة وقد ضربها الله مثلاً لسذاجة التفكير، وشراهة الطمع وعنفوان البطر بالنعم.. وهى من هذا الجانب انعكاس.. بالمثل لحالة أغنياء مكة وكفارها من محمد والفئة المؤمنة الضعيفة، وربطت بين غرور كفار مكة وتيههم بالمال والولد.. وبين قصة أصحاب الجنة.. ليحدث التأثير وليصل المعنى المراد إلى هؤلاء المتبشرين بغناهم وعصبيتهم. فعاقبة البطر والطمع وخيمة، كما أن منع الخير عمن يستحقه، والاعتداء على حقوق الغير، نتائج وخيمة أيضاً.. وما المال والبنون إلا ابتلاء واختبار، مثلما اختبر وابتلى أصحاب الجنة بجناتهم.

ومن حيث الإطار القصصى، فإننا نلمح هذا التفكير البسيط الذى يسيطر على أصحاب الجنة.. إنه تفكير يتسم بالسذاجة.. ومحاولتهم استخلاص الثمر لأنفسهم محاولة بسيطة، وسلوك يتسم بالسطحية، ولعل هذا يعود إلى نفسية الناس حيث إن أهل مكة فى بداية الدعوة الأولى لم تكن نفوسهم شديدة التعقيد.. فلاءمت البساطة فى العرض، ببساطة تفكيرهم الجانح إلى العناد.

وتمضى القصة فى نسق متسلسل.. لقد عقد أصحاب الجنة عزمهم على أن يجنوا الثمار فى بكرة الصباح، والعيون نائمة، والسكون مطبق، وأقسموا ألا يتركوا شيئاً للمساكين والمحتاجين وياتوا ليلهم وفكرهم الساذج يشغل وجدانهم ويستحوذ على مشاعرهم.. واطمأنوا لما بيتوه.

ولكن الله يدبر أمراً غير الذى يدبرون.. جزاء على بطرهم بالنعمة ومنع الخير عمن يستحقه.. وكانت المفاجأة فطاف على الجنة طائف قلع نبتها

وأسقط ثمرها وجفف أوراقها وأعوادها.. فبدت فى العيون كالهشيم اليابس.. لقد حرموا الجنة وما فيها.

ويستيقظون مبكرين، كل ينادى على الآخر فى عجلة من أمرهم، يودون الحصاد فى غفلة عن الصوت. ويمضون فى سكون وخفوت، فلا حركة تتبىء عنهم ولا صوت يصدر منهم.. كأنهم أشباح. وهسيس الصوت الذى لا يبين ينفلت من الشفاه المطبقة فى رجفة فعل.. يشى بحرمان أى مسكين من دخول الجنة، أو أخذ شىء من ثمارها.

وبدا لهم أنهم قادرون على منع العطاء والخير.. وسرعان ما فوجئوا بما رأوا.. فلقد رأوا عجباً.. ولم يصدقوا أن الجنة الحافلة بالثمار، المترعة بالأوراق الخضراء الندية، الفواحة الزهر.. الجارية الماء.. قد بدت فى عيونهم هشيماً تذروه الرياح.. وينفلت من داخلهم صوت الخوف، الراشح بالدهشة، الميال إلى عدم التصديق، المأخوذ بالمفاجأة.

-لقد ضللنا. ما هذه بجنتنا أنكون ضللنا الطريق؟!

ولكن الواقع ينبئ. بالحقيقة والعين لا تخطئ الرؤية.. فلقد وضع الأمر.. فما أخطأوا الطريق... ولكنهم أمام الحقيقة.. محرومون مما عقدوا العزم عليه، محرومون من ثمار كانت يانعة، وحصاد كان وفيراً.

وفى غمرة الحدث العنيف، وفى هول المفاجأة يقبل بعضهم على بعض يتلاومون.. ويدور الحديث كاشفاً نفوسهم.. وينبرى أوسطهم قائلاً:

- تلك هى جنتكم، حرمكم الله منها قبل أن تحرموا الفقير المحتاج، ولطالما قلت لكم، ونبهتكم أن تسبحوا الله، وتذكروه، وتحسنوا إلى عبده.. ليتكم مضيتم فى طريق أبينا الشيخ الذى ما حرم يوماً مسكيناً ولا منع خير الله عن محتاج.

وفى نبرة واحدة، خرج الصوت من صدورهم يحمل حزناً عميقاً، وندماً كاوياً.. واتجهوا إلى الله.

- تنزهت يا ربنا عن كل ظلم، فما حاق بنا نستحقه، فلقد ظلمنا أنفسنا بأيدينا.

وبدا كل واحد منهم يلقي بتبعية ما حدث على غيره.. إنهم فى فوضى

العتاب.. يهيلون التهم حيثما ترد، وكأنما يتصلون من جرم عالق بهم كالعلقة وكل يلوم الآخر على ما بيّت من رأى فما من واحد وقف ليردع الآخر بالفعل عما ينوى.

وتخف حدة اللوم ويدرك الجميع أن العاقبة السيئة جاءت نتيجة الخطيئة الكبيرة التي ارتكبوها.. ويعترف الكل بما فعل.. فلعل في هذا الاعتراف وسيلة إلى أن يغفر الله لهم.. ويعوضهم عن جنتهم التي بادت وضاعت. - عسى الله أن يبدلنا خيراً منها.. إننا نرغب في عفوه وغفرانه.

وهكذا فإن العذاب الذى نزل بأصحاب الجنة، ينزل بغيرهم ماداموا يمنعون خير الله ويتيهون بما لديهم من مال وبنين.. وسينزل العذاب بقريش.. وليعلم مشركو مكة أنهم قد وقعوا فى بلاء كبلاء أصحاب الجنة.. وليحذروا بلاء الله يوم القيامة.

ولقد ساق الله هذه الآيات كتجربة من واقع البيئة.. ومما هو متداول بينهم من القصص، فيريط -كما يرى سيد قطب فى الظلال- بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، ويشعر المؤمن بأن ما يروونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء ولقد عبرت الصورة البيانية تعبيراً صادقاً عن الحالات المادية والنفسية التى اشتملت عليها القصة.

ف نجد فى الصورة البيانية مثلاً للطمع المترسب فى النفس.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتُنُونَ﴾ القلم: ١٧-١٨.

والصورة البيانية هنا تتدرج تحت ما يسمى بالتشبيه التمثيلى حيث يصبح التشبيه صورة كاملة، لحال المشبه والمشبه به.. فالصورة البيانية تشبه حال الطاغين من قريش المستغنين بالمال والبنين وقد ملأ قلوبهم مما أدى بهم إلى العناد مع الله، بحال أصحاب الجنة الذين اغتروا بمالهم وسيطر عليهم الطمع وظنوا أنهم بمالهم قادرون على فعل ما يريدون.. دون مراعاة لمشيئة الله وما يجريه الله على عباده.

وجمّال التشبيه هنا أنه جاء للتقريب. ذلك لأن حال الكفار أشدّ عتوّاً وأبلغ غروراً.. والصورة البيانية تكشف الحالة النفسية، الدالة على تمكن الفعل منهم.. هذا التمكن الذى عكسته أدوات التوكيد فى لفظة «ليصرمنها».. فضلاً عن أن المفردة القرآنية وفّت بالمعنى كاملاً، فهى أبلغ من حيث الدلالة من المعنى المرادف لها وهو القطع لأن الصرم قطع من الجذر فهو أقرب إلى القلع. وهذا الحرص والإصرار أنساهم الله وجعلهم متلهفين إلى الفعل مما أوقعهم فى خطأ الحساب والتصور.

وثمة صورة بيانية تتضاد مع الصورة الأولى.. فالصورة الثانية تصور قدر الله الذى حل بهم.. وهو قدر لا يفلت الظالمون منه.. قال تعالى: ﴿فَطَافَ

عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ القلم: ١٩-٢٠.
والطائِف السَّريع قد يكون ريحاً صرصرأً عاتية وهو قد تم بأمر الله.. ويوضح التشبيه الحالة التى آلت إليه الجنة فالأشجار الخضراء، والأوراق اليانعة والثمار الناضجة، قد تحولت جميعها فى لحظة قدرية عالية إلى أخشاب متراكمة فقدت جمالها وثمارها، ولأن الأمر جاء بغتة فقد وقف التشبيه عند أطرافه الأساسية وهو المشبه والمشبه به، وأدت «الكاف» دورها فى تصور الذهن للحالة التى آلت إليها الجنة.

ثم صوّرت الآيات الكريمة صورة الحرص والطمع ومنع الخير عمن يستحقه، فى صورة نفسية بلغت حد الإعجاز.. قال تعالى: ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ القلم: ٢١-٢٤.

فثمة اجتماع على أمر خبيث ولأنه أمر خبيث، فلقد اتفقوا عليه فى تخافت وإسرار ومن ثم تصبح كلمة (يتخافتون) الأداة التصويرية الفاعلة التى تحمل معنى الكناية البلاغية، لبيان أمرهم النفسى وحرصهم الخبيث. ذلك أن الامتناع عن الخير لا يكون إلا بإصرار النفس، والتفاهم فى سرية والبعد عن الجهر. وتكمل الآية الصورة حين تبين أنهم لا يمنعون العطاء فقط عن المحتاج بل يمنعون من مجرد الاقتراب والدخول.. فى أداء يتضمن النهى المؤكد والإصرار عبر استخدام النفى والتوكيد.

ويرفد المعنى، ما ورد فى الآية الكريمة «وغدوا على حرد قادرين» القلم:

آية ٢٥، فهم قاصدون للقطع، ومانعون للخير وكلمة «الحد» تعنى المنع والتشدد فيه.

وتأتى المفاجأة فتنبه القلوب الغافلة والضمائر النائمة.. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ القلم: آية ٢٦-٢٧.

فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعا فأصابتهم بالحيرة والضلال وحين يتيقنوا من الأمر أحسوا بضلال آخر معنوى أشد فتكاً فى النفوس وتأثيراً فى القلوب.. وتأكدوا أن الله قد قدر حرمانهم وما قدره الله نافذ وهو ما يفيد حراف الإضراب «بل» وأنه يشعر بأنهم قد شعروا بالأسف حين حرموا فضلوا.. ولعل هذا الأسف يكون مدخلا لهم إلى الهداية.

ومن هذا المنطلق تكون العبارة التى تلفظ بها أوسطهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ القلم: آية ٢٨، قد أدت المراد منها فى إكمال الصورة فالاستفهام يتضمن التوبيخ، وكأنما يوحى بأن صوت الأوسط كان فيه تحذير مما يزمعون على فعله ولكنهم لم يأبهوا بما قال فجاء التوبيخ لهم، على أنهم لم يسبحوا الله ويقدسوه وينزهوه ويعرفوا أنه القادر فوق عباده.

ويأتى الاعتراف المصحوب بالندم والحسرة قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ القلم: آية ٢٩، فلقد أدركوا الغفلة التى وقعوا فيها فقالوا - كأنما يعلنون إيمانهم- سبحان الله تقدس وتنزه.. لقد رجعوا إلى الله، ولكنه رجوع ناقص، فلا يكتمل إلا بالتوبة النصوح.

وبعد حصول الندم واستشعارهم للذنب الذى ارتكبوه أقدم بعضهم على بعض فى تلاوم. والتلاوم يعنى أنهم أحسوا بعبء المعصية ينمو فى داخلهم، فبدا كل منهم يلقي بهذا العبء النفسى على الآخر.. وأدركوا فى النهاية أن السبب وراء ذلك كله هو الطغيان والظلم، فالطغيان يجعل صاحبه -فى ظنه- قادراً ومستغنياً.. مصداقاً لقوله تعالى فى سورة العلق ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ العلق: آية ٦-٧.

لقد عادت الضمائر الغافلة، وبدأ الخوف يدب فى النفوس، واستشعار إيمانى بدأ ينساب إلى الداخل.. وذلك بعد أن خلعوا رداء الطغيان.. وأقبلوا على الله راغبين فى رضاه وعفوه (إنا إلى ربنا راغبون) القلم: آية ٣٢.

يقول المرحوم الشيخ أبوزهرة: «نرى فى هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التى تشتمل على العبرة الواضحة، فيها تتلاقى المعانى.. وكل معنى يردف لما سبقه، ومقدم لما يليه فى تأخ بين جزئياته، وتعانق مع كلياته. كل جزء من الكلام يوعز لما يليه.. وفيها ألفاظ مؤتلفة فى نغم يهز النفس، وتآلف بين الألفاظ مفردة وجملاً وفيها تصوير للنفس الإنسانية حين يدخل إليها الطمع، ومع الطمع الشح، وإذا سكن الشح قلباً دخل منه الظلم وهضم الحقوق.. ولكى ينبجؤ المؤمن عليه أن يراقب مداخل الشح.. فإن سد طرقها.. فقد فاز^(١) كما قال تعالى: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الحشر: آية ٩.

لقد جاء التصوير البيانى والجمال اللفظى والأداء التعبيري فى تضافر تام، ليعكس لنا نوعاً من النفوس البشرية طغت بما لديها من مال ففاجأها الله بقدره، مفاجأة تستحقها لعلها ترجع وتعود إلى الطريق السوى. والقصة تتضمن عناصرها الأساسية التى تثير الفكر والوجدان وترسخ القيمة الدينية الرئيسية وهى هدف القصة ومغزاها.

فالشخصية هنا نموذج للطامع البخيل وللغنى الذى أبطره غناه.. وهى فى الشكل الخارجى تبدو متماسكة، لأنها تتماسك بجاهها ومالها ولكنها فى الحقيقة، لا تملك مؤهلات هذا التماسك، فهى فارغة من الداخل لا قيمة دينية مترسبة ولا خوف من الله، ولا حساب له.. مما جعل الشخصية فى النهاية تتهاوى.. وتذوب.. أمام القدرة الإلهية.. تلعن نفسها وتندب حظها، وتستشعر الندم فى كل ما فعلت.

والحوار: يكشف لنا فى لمسات فنية سريعة مراحل التحول فى الشخصية من التكتّم، والإصرار، والتخافت، والجدل.. مما يعين على فهم الحالات النفسية التى صاحبت الفعل كما صاحبت المشهد الأخير.

كما أن عنصر المفاجأة له من التمكن بحيث يقلب الحدث رأساً على عقب فأفادنا فى التعرف على موقفين: موقف ما قبل المفاجأة.. وموقف ما بعد المفاجأة كما أنها تضمنت الهدف الدينى.. وهو أن الله غالب على أمره.. وأن كل شئ بإرادته وأن المال عارية لا يضيف قوة ولا يسند قلباً فارغاً من الإيمان.

١- المعجزة الكبرى، ص ١٤٢

وقفات مع الفكر الإسلامي

نقاء العقيدة

لم تكن الجزيرة العربية التى نزل فيها القرآن بأفضل من البيئة الدينية التى انحرفت فيها رسالات السماء، فلقد امتلأت بأخلاق دينية منحرفة فضلاً على الوثنية السائدة، التى أثرت فيهم فطبعتهم بالعصبية القبلية وقسوة القلب وجمود الحس، وعداء لكل ما هو حق، وعنفاً لكل جديد يطرأ على دينهم. ولم يتخلوا عن معتقدتهم الدينى الذى يرى أن الملائكة بنات الله، فاتخذوا منها أصناماً وعبدوها زلفى.. ومع ذلك فلقد كانت النظرة إلى الأنثى نظرة متدنية، بل قد وصل بهم الأمر إلى الوأد.. وكشف القرآن الكريم هذا الجنوح والشطط البالغ فى قوله تعالى: «وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم».. كما كانت قبائل من خزاعة تعبد الجن. وعبد غيرهم الكواكب والنجوم.

وكانت الكعبة تمتلئ بالأصنام وعلى رأسها اللات والعزى ومناة، واستشرى الأمر حتى كان الرجل يحمل إلهه فى الحل والترحال. قال تعالى: «إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل بها من سلطان» ولقد أنكر القرآن عليهم تلك العادات الوثنية والانحراف البالغ عن التوحيد.

ولم يكن عجباً أن تواجه عقيدة التوحيد من عرب الجزيرة بعداء شديداً، فالقرآن يدين نمطاً من العبادة، ويطالبهم بعبادة الله الخالق البارئ «لاتسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذى خلقهن».

لقد جاء القرآن ليخرجهم من هذه الوثنية الضارية فى أعماقهم.
دعا إلى التوحيد، وعبادة الله واحداً لا شريك له، والاعتقاد فى البعث
والجزاء. وهوجمت تلك التعاليم الدينية هجوماً ضارياً، وسجل القرآن الكريم
هذا الهجوم. قال تعالى: «وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً
واحداً إن هذا لشئ عجاب».

واهتم الإسلام فى تعاليمه بتوضيح الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة
بالخلق والإرادة والتدبير والريوية، وكذلك حقيقة الصلة بين الله والإنسان
وتحرير الضمير البشرى من المعتقد المنحرف وترسيخ الأصول الاعتقادية
الصحيحة.

إن تحديد الإسلام لحقيقة الألوهية وعلاقتها بالخلق، وتنظيم أمور الحياة،
جعل من الإسلام دين الفطرة، والخلق الكريم، والعدل المطلق بين البشر،
والمعتقد الصحيح، والرسالة المثلى للإنسانية جمعاء.
وإخلاص العبادة لله تنقية للمعتقد الدينى مما شابه من أخلاط
وانحرافات.

إن فكرة التوحيد هى محور الرسالات الإلهية جميعاً. وجاء الإسلام ليصحح
المسار، ويزيح ماعلق من تحريف وقع على الرسالات السابقة له.
قال تعالى: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
فاعبدونى».

وردَّ القرآن على منطق المنحرفين وبَيَّنَّ الحكمة الإلهية من خلق الجن
والإنس والكون كله.. فالله هو الخالق المعبود المختص وحده بالعبادة، والكون
كله فى قبضته، وأنه لم يخلق الكون عبثاً، وأن الحكمة من خلق الإنسان هى
عبادة الله، وعمارة الكون، ومواصلة الحياة إلى أن يشاء الله. ومن ثم استحق
الإنسان أن يوصف بصفة عالية القدر وهى «خليفة الله».

وقال تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

وقال تعالى: «والهكم إله واحد».

وبنقاء العقيدة فى الإسلام، أصبح صالحاً لكل زمان ومكان، يدعو إلى
الخير وينبذ التعصب المقيت، ويحافظ على الفطرة ونقاء القلب.

مبدأ الشورى فى الإسلام

الشورى - كمبدأ ونظام حياة - من القواعد التى تؤسس لعلاقة سوية ومتامية بين الراعى والرعية. وهو علامة على المجتمع الذى اكتملت له أسس البناء ومقومات الحياة ووسائل التقدم. ويصبح العمل وفق هذا المبدأ متامياً مع جوانب الحياة فى تنوعها ومع المقاصد التى يحددها الإطار الدينى كما ورد فى القرآن والسنة.

والشورى أصل فى النظام الذى تقوم عليه حياة الجماعة الإسلامية. وجاء القرآن الكريم ليرسخ هذا المبدأ ويجعله قاعدة إسلامية أصيلة فى نظام الحكم. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ آل عمران ١٥٩.

وللأمر بالشورى مناسبة. فلقد استشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى غزوة أحد، فرأى البعض أن يخرج المسلمون لملاقاة العدو خارج المدينة. ورأى البعض أن يتحصنوا بالمدينة حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه وهم محصنون.

وكان الرسول يميل إلى رأى الثانى لأنه يعلم خطورة الخروج والابتعاد عن أسوار المدينة، ولكنه وافق على الخروج لملاقاة العدو لكثرة المؤيدين له. وجاءت النتيجة هزيمة للمسلمين.

وأعطى الرسول بذلك درساً عملياً وحيوياً فى ضرورة الالتزام بما اتفق

الناس عليه حتى يبقى للجماعة قوتها ويدعم نظام الرأى فيها، وإن جاءت النتيجة على غير ماتوقعته الجماعة إيماناً بأن أخطاء الجماعة أقل بكثير من أخطاء الفرد، ولذلك لم يؤنب الرسول أصحاب هذا الرأى، ولم يعترض على مبدأ الشورى بنتائجه، لأن الإسلام كان ينشئ أمة، ويربيها، ويعدّها لقيادة البشرية، وخير وسيلة لتربية الأمم.. أن تربي بالشورى وتتدرب على تحمل التبعة وتتعود على تقويم الخطأ وتصحيحه. وهذا يعنى أن مبدأ الشورى قاعدة إسلامية فى منهاج الحكم، وأن التأسى بالرسول وهو يستشير الجماعة وأهل الرأى والاختصاص ولا ينفرد بالرأى والقرار دعوة مؤكدة للعمل بالمبدأ والتحذير من تعطيله.

إن حركة الحياة وما يستتبعها من متغيرات وإجراءات، وصراعات توجب الأخذ بمبدأ الشورى فيما يتصل بأمر الحياة. والقرآن الكريم يرشدنا إلى أن حكمة الله اقتضت أن يترك لأولى الأمر وأهل الحل والعقد - أى للعقل البشرى - القضايا التى ترتبط بمصالح الناس والتى قد تتغير فيها المصالح بتغير الأزمات والأماكن.

وانطلاقاً من هذا المعنى فإن أولى الأمر فى السياق هم القادرون على تكوين الرأى، وهم المتخصصون فى مجالات الحياة بما لديهم من خبرة وفكر وتجارب تؤهلهم لهذا الدور.

والإمام محمد عبده يرى أن أولى الأمر فى زماننا هم «.. كبار العلماء، ورؤساء الجند، والقضاة، وكبار الزراع والتجار، وأصحاب المصالح العامة.. والنابغون من الكتاب والأطباء والمحامين والمهندسين.. أولئك الذين تثق بهم الأمة وترجع إليهم فى مشكلاتهم».

وكان - صلى الله عليه وسلم - يرى أن الأمة الإسلامية من حقها أن تنظر إلى نظام الشورى وفق حركة الزمن دون أن يتجاوز المعتقد الشرعى والتشريعى.. ومن ثم حرص الرسول على الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا.

قال صلى الله عليه وسلم: (إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر).

فى غزوة بدر نزل رسول الله على رأى الحباب بن المنذر. ولقد اعترض

الحباب على المكان فقال (يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزلٍ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ثم تغوّر ماوراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول لقد أشرت بالرأى).

وهذه المواقف بين الرسول وقومه تدل على مدى تأصل روح الشورى فى الأخذ بالرأى والعمل به حسبما يقتضى الأمر.

ولقد ورد فى السنة أن كل مجتهد مأجور، إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران. فالمثوبة على الاجتهاد فى الرأى دليل على أن الإسلام يشجع على إبداء الرأى.

والحرية السياسية من الأمور التى أكدها الإسلام حين قرر الأخذ بمبدأ الشورى فى الحكم.

قال تعالى (وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم).

لقد قرن الله الشورى بالصلاة وجعلها أصلاً من أصول الإسلام ومثل هذا النظام تتحقق فيه العدالة السياسية والاجتماعية معاً.

ولقد أقر الإسلام صحة الخلافة أو الحكم إذا جاء ذلك نتيجة بيعة حرة. بل إن الرسول حين حضرته الوفاة لم يعين خليفة له بل ترك الأمر شورى بينهم.

والآيات الداعية إلى الشورى ربطت بين الحرية والخير كما ربطت بينها وبين الصلاة وبينها وبين الانفاق وهى قيم أساسية فى الإسلام.

قال تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير..) فالآية ترى أن يكون فى الناس جماعة متحدة قوية، (تتولى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهو عام فى الحكام والمحكومين، ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم).

والقرآن مدح مبدأ الشورى. قال تعالى: (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) الشورى. وإذا كان النص القرآنى مكيافهذا يعنى أن الأمر بالشورى جاء مبكراً. وهو نظام متروك لجماعة المسلمين يقررون فيه الصالح لهم.

فالشكل الذى تتم به الشورى ليس مصبوبا فى قالب حديدى (فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان.. والنظم الإسلامية ليست نصوصاً حرفية وإما هى قبل كل شئ روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة). الظلال.

والأمة الإسلامية بهذا المعنى مطالبة بمراقبة الحكام ونصحهم ومعاقبة الطغاة والظالمين منهم.

وكما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم فإن مناصحة أولى الأمر واجب (.. وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) فالشعب المسلم حق الرقابة على الحاكم ونصحه، وعقابه إذا ظلم الرعية وطغى فى الحكم.

ولقد درج الخلفاء الراشدون على التمسك بالمشاورة واستطلاع رأى وفهموا أن الأمر بالشورى ليس خطاباً خاصاً بالرسول وإنما خطاب موجه إلى عامة الناس كأصل أساسى من أصول الحكم فى الإسلام.

والشورى مظهر للمساواة، ولحرية الرأى والاعتراف بقدرات الفرد العقلية والعملية فى إطار كل يراعى مصلحة العامة فى الشورى وسائل تكشف عن كفاءات ومواهب تتضافر جميعاً فى خدمة المجتمع.

الإسلام وحقوق الإنسان

صاغ الإسلام مبادئ تشريعية تكفل للإنسان حقوقه وتصور حياته وفق الفطرة ومتطلبات حركة المجتمع ونموه، وإذا كان البعض يرى أن للإنسان حقاً قد قرّرت طبيعته الإنسانية، وأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، يشير إلى هذا الحق ويدعو إلى تأكيده واحترامه.. فلقد ضمن الإسلام ذلك حين أكد هذا الحق، وأصدر القوانين والمبادئ التي تكفل صيانتها وتلزم الآخرين به.

ولقد قدم الإسلام إعلانه لحقوق الإنسان منذ نزل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متضمناً مبادئ منها الحفاظ على الحياة، والحرية، والمساواة، والتعلم، والحياسة، والتفكير العقلي، والتعبير، والكفالة، والتثقل وغيرها من الحقوق، ولقد أصدر من القوانين الملزمة ما يساعد على تكريس هذه الحقوق وتطبيقها بحكم كونها نابعة من مصدر إلهي لا يقبل الحذف، أو تعطيل المبدأ، كما لا يسمح بالاعتداء عليها أو الالتفاف حولها، أو التنازل عنها، لقد شرع الإسلام هذه الحقوق في شمول تام وأحاطها بضمانات تحميها.

● **حق الحياة..** واحد من هذه الحقوق يرتبط بتمتع الإنسان لما وهبه الله له وما أودع فيه من استعدادات، وهو حق غير محدد لأنه يواجه الكون باتساعه، ومن ثم وجب أن يتحقق للإنسان أسباب الحياة واستمرارها والتمتع بما فيها من حرية، وعدل، وغذاء، ومسكن، وأمن. فحماية الذات من العدوان

عليها أساس من أسس حق الحياة، لأن التعدى على الذات خروج على مقتضى حق الإنسان فى أن يعيش حياته وفق المنظور الذى شرعه الله.

وحتى لا يتحول الأمر إلى فوضى جاءت التشريعات التى تحمى هذا الحق.. وفرضت الضوابط التى تصونه، ذلك أن الحدود والعقوبات ما هى إلا وسائل لحماية هذه الحقوق، فالحياة حق للإنسان لا ينتزعه إلا خالق الإنسان.

● ولقد سعت الدساتير والمواثيق الوضعية إلى هذا التأكيد.. ومع ذلك فإن النظرة إلى - الإعدام كعقوبة - تعتبره انتقاماً لجرم حدث.. مع أنه من الوجهة الإسلامية صياغة «لحق الإنسان فى الحياة» وضمنان لاستقراره، ولقد شدد القرآن على ضمان حق الحياة فى آيات كثيرة منها..

قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة ٣٢).

ولقد وردت الآية فى سورة المائدة وهى سورة مدنية تناولت جانب التشريع وتأسيس المجتمع المدنى، ونزلت بعد صلح الحديبية والمجتمع الإسلامى يتخذ شكل الدولة واحتياجه إلى القانون الإلهى الذى ينظم حركة الحياة ويصونها من الخطأ والجنوح.

ولقد قرن القرآن بين القتل والفساد فى الأرض من حيث إن كليهما يوجب القتل بحقه لأن كليهما جريمة تستوجب العقوبة ليبقى للنظام المجتمعى العام نسقه الذى شرعه الله.

● كما عمل الإسلام على صيانة الإنسان ليقوم بالدور المنوط به فى تعمير الكون فحرم الخبائث والزنى، ودعا إلى السعى لكسب الرزق والتمتع بالطيبات ونهى عن القنوط واليأس وحذر من التواكل.

وهذا يعنى تربية الإرادة الإنسانية كى ينهض الإنسان بمسئوليته، ومن هذا المنطلق أمر القرآن الإنسان أن يحافظ على حياته ونهاه عن التخلص منها لسبب أو لآخر.. «ولا تقتلوا أنفسكم..» وعليه ألا يعرض نفسه لمواطن الهلكة «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

● لقد سلح الله - سبحانه - الإنسان بالقوى النفسية والبدنية وشرع من التكاليف ما يحفظه ويصونه، ويحقق أمنه وسعادته.

العمدة العلم الثالثة

قال تعالى فى كتابه الكريم «كنتم خير أمة أخرجت للناس.. تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..».

لقد جعل الإسلام بمبادئه أمة العرب، أمة جديدة بدينها، أمة ذات عزة وسيادة وكرامة، أمة قطعت بالإسلام خطوات جبارة فى سبيل التقدم والرقى الإنسانى، والتحضر العقلى والعلمى، وهو رقى مبعثه مبادئ الدين الحنيف القويمة والداعية إلى الأخذ بالأسباب و البحث فى جنبات الكون لصيانة عقل الفرد المسلم وتدريبه على اختراق جوانب المعرفة ما ظهر منها وما خفى.

ولقد تغيرت المجتمعات البشرية، بدخولها إلى حظيرة الدين الإسلامى تأوى إليه بعد ضلال طويل، فعملت على تحقيق دعوة الإسلام الكبرى وهى تحرير العقل - بعد أن تحرر الدين وخلصت العقيدة لله وحده - والفكر والسلوك، من كل ما يقيده ويقف به عاجزا عن الحركة، لقد تحرر العقل من ركام ثقيل وأساطير مدمرة، وعادات تطمس العقول وتزيل النور، واتجه واثقا إلى مجالات عقلية أخرى كالتأمل والتدبر والتفكر فى ملكوت الله - سبحانه - وصولا إلى إدراك مظاهر الوحدانية فى الكون.

ولقد تلاعب تحرير العقل مع تحرر الإنسان من عبوديته ووثنيته التى امتدت وطالت، حيث حرر الإسلام الفرد - بالدين الخالص - من الرق والعبودية

والمهانة البشرية وأصبح المسلم منذ أخلص العبادة، وآمن بالوحدانية، وانخرط فى رحاب الدين واتباعه، مهياً للانطلاقة العظمى، والقفزة الحضارية الكبيرة.

إن امتزاج التحرر الدينى، بالتحرر الإنسانى، بالتحرر العقلى، كان وراء خطوات التقدم الحضارى الذى شهدته الحضارة العربية والإسلامية على مدار تاريخها الطويل ووراء تأصيل المبادئ الإسلامية وغرس جذورها، وتعهدها بالرعاية حتى أضحت دوحة وارفة الظلال يستظل بظلها كل من تهفو نفسه إلى السمو والرقى.

وتحت ظل هذه الشجرة المترع بالأمن والراحة والطمأنينة النفسية، انتشر الخير وعم الرخاء وسعد الإنسان بحياته الجديدة والمتجددة، فتحقق له مبادئ الحق والخير والجمال والحرية والمساواة.. فأضحى مهياً لأن يتلقى الرسالة الحضارية ويعمل على انتشارها وتأصيلها وتنوع روافدها.

والإسلام خلَّصَ الذهن العربى من الشوائب التى عقلت به والضلالات التى أركسته ونزلت به إلى الحضيض تماماً مثلما خلص وجدانه الدين مما شابه من أحاسيس مختلطة كانت ترمى على عينه بغشاوة لا يرى منها الضوء الرقراق الصافى الذى يتكسر موجه عبر الأكوان والأجواء والإنسان نفسه، وعلى قلبه ثقلاً يضغط عليه فيجمده ويصيبه بالقسوة والتبدل، فيضحى القلب جلوداً من الصخر.

فى ظل الشجرة الوارفة، شجرة الدين، وشجرة المعرفة انطلق المسلمون يصنعون حضارتهم ويؤصلون جذورها، ويغوصون فى أعماق المعارف والعلوم حتى أصبحت الحضارة الإسلامية، والعلوم والمعارف والفنون والآداب مثلاً يحتذى وهدفاً تشد إليه الرحال، أيام المجد والمد والإسلامى فى العصر الأموى والعصر العباسى.

وليس غريباً أن تزدهر الحضارة فى ظل الدين الإسلامى، فالإسلام دين العقل ودين الحرية، والتفكير والتأمل، بل إن أول ما نزل منه من آيات على ساحات مكة المكرمة، وفى حيز مكانى ضيق فى الغار المرتفع المشرف على الكعبة المشرفة لدليل واضح بأن البدء الصحيح يكمن فى القراءة الصحيحة، القراءة الشاملة بمفهومها العام الشمولى.

إن أول آية نزلت من رب العالمين على خاتم المرسلين محمد - صلى الله عليه وسلم - هي آية كريمة تدعو إلى العلم والتعلم وتدبر خلق الإنسان.

قال تعالى «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم...».

وانظر معى إلى وسيلة المعرفة الأولى التى وردت بالآية الكريمة.. القراءة.. قراءة الإنسان أولاً، وتدبر معنى خلقه، والإعجاز الإلهى فى تكوينه.. ثم الانطلاق الرحب إلى آفاق كونية أخرى.

وإذا كانت أداة تسجيل المعرفة قد وردت بالآية الأولى، توكيدا على الرابطة الوثيقة بين القراءة والتسجيل، فإن الحق - سبحانه وتعالى - قد أقسم بهذه الأداة الكريمة لما لها من أهمية، ولأنها مفتاح العقل البشرى إلى عوالم متعددة الأنواع والأشكال.

قال تعالى «ن، والقلم وما يسطرون...» فالقلم ذو منزلة لأنه الأداة لنقل ما تجود به القريحة البشرية، إنه صنو العقل وأداته أيضاً.

ولم يكتف القرآن بإبراز أهمية القراءة والكتابة، بل دعا فى آيات كثيرة منه إلى النظر فى الكون لتأمل دلائل الإعجاز فيه، وللاستخدام هذا النظر فى التأمل والتفكير والبحث والاستقصاء ودراسة الظواهر الكونية التى أرجعها العقل البشرى قديما - قبل الإسلام - إلى أساطير وخرافات وهمية وثنية.

إن هذا النظر وتلك الدعوة، خطوات وأدوات للبرهنة على الإعجاز الإلهى.. وهو كله يخدم الدين ومبدأه الأساسى التوحيد الخالص لله، فالكون مرآة ضخمة تعكس دلالاته القدرة الإلهية، وتدعو الناس فى الوقت نفسه إلى استخدام المنحة الإلهية لهم وهى العقل، فى استكشاف واستكناه طلائع هذا الكون الذى يعطى بعضا من غموضه يوما بعد يوم.

والآيات القرآنية الداعية إلى التفكير وتصفح جوانب الكون ومظاهره المختلفة كثيرة جدا، ولكنها وهى تدعو تربط الدعوة إلى الفكر بالوحدانية والعبادة.

قال تعالى «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب».

وقال تعالى «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم.. فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» صدق الله العظيم.

إن الإسلام دين الفكر ودين العقل ودين العلم معا، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يقدم حجة على رسالته إلا كان طريقها العقل والنظر والتفكير.. ولم يشأ أن يحقق له الرب - جلَّ وعلا - ما كان يطلبه قومه من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم، قال تعالى: «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون».

ولقد وضَّح الإسلام فى دعوته إلى العلم والرقى البشرى، العمد الأساسية التى تسند العملية العقلية والفكر الإدراكى التأملى، وأول هذه العمد هو التأمل والتفكير واستخدام العقل فيما هو مفيد لصاحبه ولدينه ولجماعته ولخير البشرية جمعاء، وحين أعلى الإسلام من العقل، وجعل القرآن معجزة الرسول الكبرى، معجزة عقلية، أصبح كونه خاتم الأديان وكون الرسول خاتم الرسل، أمرا مقبولا ومقررا، على المستوى العقلى البحت.

كما أن القراءة هى العمود الثانى من عمد العلم الرئيسية، القراءة بمعناها الواسع الشامل المتعدد.. تصفح الكون وقراءة ظواهره المعجزة، قراءة ما جاء به الدين قراءة فهم واستيعاب وعمل به.. القراءة التى تؤدى إلى الترحال من أجل الحصول على العلم فى مظهره.. قراء تراث الإنسانية واستخلاص جوهره الصافى وتنقية ما اختلط به من وثنيات وأباطيل.

إن حصيلة التأمل، ونتاج القراءة بمفهومها الواسع العريض، لينتال على أسنة القلم، مدادا يسجل ويكتب رحلة الإنسان إلى البحث والعلم والمعرفة، ومن ثم كان القلم هو العمود الثالث من عمد العلم الأساسية.

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - حثَّ أيضاً على العلم ودعا إليه، بل كانت وسيلة العتق من الأسر ومن الرق، تعليم المسلمين القراءة والكتابة، ولم يسمع العرب منذ أن درجوا فى حياتهم أن تكون القراءة والكتابة وسيلة للعتق من العبودية، وكانت وسيلتهم الأولى والأساسية وسيلة مادية بحتة.. ولكن

رسول الله إلى البشرية.. أعلى من قيمة القراءة والكتابة - وهو الأمى - لأنها مفتاح علوم الدين، ووسيلة الناس إلى فهم القرآن وأمور دينهم، ثم نهضتهم ورقبهم وتحضرهم.

إن الملائكة ليخفضون أجنحتهم لطالب العلم، وهو فى رعاية الله وحمايته حتى يرجع، وهو شهيد إذا ما سقط وهو يبحث ويتعلم.

وقد ارتفع القرآن بالعقل وبين أن إهمال العقل - بعد أن جاء الإسلام وحرره من ربة الجمود والتقليد والخرافة - سيكون سببا من أسباب العذاب التى يحاسب عليها الإنسان وتوقع به الهلاك، ذلك لأن مثل هؤلاء يكونون قد ضلوا، حين لم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق، والعمل بتلك المعرفة.

قال تعالى: «لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير».

إن هذه الأعمدة الثلاثة هى الوسيلة والطرائق الأساسية التى بها تنهض العلوم، وتتطور الأمم، ولأن الإسلام جاء فحرر العقل كان لزاما أن يكون من مقتضيات الإسلام - دين العقل - أن يحذر من الجمود والتقليد، ويجعل الأساس الإيمانى هو البرهان والحجة والدليل، بل إن العلم - للمكانة هذه - رفعه الإسلام ورفع به أهله والعاملين به إلى مرتبة ثالثة لمعرفة الحق والعمل به - بعد الله والملائكة، قال تعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط..» وكان تباعا أن يوصفوا - أهل العلم وأصحابه - بالخشية لأنهم - بالعقل - يدركون آثار قدرة الله وعظمته، قال تعالى «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

ولقد نشأ المسلمون فى ظل ما قرره الإسلام ودعا إليه القرآن وحث عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففكروا وبحثوا وتعقلوا، وتدبروا فى آيات الله، وآثار عظمته وقدرته، وتصفحوا المراثيات الربانية ما ظهر منها، واستكشفوا - جاهدين - ما بطن منها، وسجلوا ذلك كله، نهضة علمية رائعة لم يجد الزمان بمثلها، فساد المسلمون وساد الإسلام، وعزت دياره، وكرم أبنائه وعزوا.

وليت المسلمين.. يعودون إلى هذا النبع الصافى، يغترفون منه، حتى يستعيدوا مجدهم، وحضارتهم، ورقبهم الفكرى والعلمى، بإذن الله.

الإسلام وقضايا التنوير

● يواجه الإسلام هجمة شرسة من أعدائه الذين يتخذون من الفكر العلماني منطلقاً لهم.. وهم يعارضون الدين كنظام معرفي يؤسس لقيام مجتمع له طابعه الديني، ويدعون إلى الانكفاء الذاتي.. إن صح التعبير - بمعنى ان يقتصر الإسلام على الشعائر التعبدية وأن يبتعد عن الواقع وحركة الحياة المدنية.. وهم يلحون في دعواهم إلحاحاً يكاد لا ينتهي على القطيعة المعرفية مع الدين وحصره في مجاله التعبيري.. وهم في سبيل تجميل الخبيث يرفعون شعار التنوير لسلخ الذات المسلمة عن تراثها ووقوعها تحت سيطرة الآخر الغربي.

● وتحول قطاع من المثقفين إلى قطاع طرق بعدما انهارت الأيديولوجيات الكبرى كالشيوعية ووسطوا على منابر الإعلام والثقافة ووسائل تشكيل الوجدان وسايروا موجات العنف والإرهاب وأرجعوها إلى هذا الخلل في الحرص على الشريعة، وراحوا يهدمون كل قيمة أو معنى أو مبدأ يرتبط بالإسلام. وهذا الحرص الشديد على هذه المواجهة يشير إلى امكانية استخدامهم لدى الغرب للتخابر، أو التخريب، أو تمهيد الفضاء الفكري لمرحلة الغزو. ولعل هذه الخدمات أن تكون مقابلاً للإنعام عليهم بالجوائز والإعلام - والتدريس بالجامعات ومندوبيته الثقافية الغربية، والانضمام إلى مراكز حقوق الإنسان ومراكز البحث، واحتوائهم تحت الجناح.

وهؤلاء العلمانيون - ومنهم من يتسيد أجهزة الثقافة الكبرى - تلونت نظرتهم إلى الإسلام نصاً وشريعة بمرجعية الفكر ومدنية التوجه.. فذهب البعض إلى نزع التقديس عن القرآن الكريم، الذى يوصف فى أدبياتهم بالنص أو الخطاب الدينى تمهيداً للدعوة - عبر دراساتهم - إلى التحرر من سلطة النص - ومن ثم التحرر من السلطة المطلقة والمهيمنة. ولقد ألحوا فى كتاباتهم على فكرة ربط النص بالواقع - لغة وثقافة ومفاهيم، من أجل ان يبرزوا محور الجدل فى علاقاته مع الواقع إذ تتجدد فى النص الدلالات الحاكمة بتجدد حركة الواقع.

وهم يرون أن الواقع بتدخلاته، وتفاعلاته واحتوائه لحركة الزمان والإنسان قد أضفى عنصراً أسطورياً على المخيلة البشرية، وتسربت الأساطير إلى النص الدينى، وتمثل ذلك فى النظرة إلى المرأة، وفرض الأحكام التى تقيد من حركتها وتقلل من كيانها.

وهؤلاء هم الذين يحتضنون الجانحين من الكتاب - ويدافعون عنهم على مستوى الداخل والخارج - وهم بذلك يساعدون الغرب فى محاربة المسلمين من داخل نفوسهم، واقتلاعهم العقيدة الإسلامية من قلوبهم - وحكموا بذلك على أنفسهم بالعمالة الفكرية وهى أقسى أنواع الخيانة.

.. ومن الكتب المهمة التى عالجت هذا الموضوع وواكبت قضايا المطروحة على الساحة الثقافية، وردت على دعاة العلمانية بأبوابهم الزائفة كتاب صدر حديثاً بعنوان «التوير .. لا التضليل» لمؤلفه الكاتب «مؤمن الهبء».

يكشف الكتاب هدف هذه العصابة من المثقفين فى سعيها الحثيث إلى فرض هيمنتها الفكرية ذات الطابع الإرهابى على مناخنا الفكرى لتطهيره - وفق زعمهم - من طابعه الإسلامى وطمس ملامح الشخصية الاصلية للأمة. ولقد بذل الكاتب «مؤمن الهبء» جهداً مضمناً فى تتبع مقولات تلك العصابة والرد عليهم وتجريدها من مظنة العلمية المدعاة وكشف السلوك الملتوى بعد انفكاك الاتحاد السوفيتى.

فالإسلام - كما يؤكد الكاتب - ليس نظاماً بعيداً عن حركة الحياة، بل هو نظام اجتماعى وسياسى واقتصادى متكامل، لا ينتقصه هجوم هنا أو هناك، فهو ثابت كالصخرة، وارف كالشجرة الظليلة، وهو العقيدة المتمكنة فى

النفوس، الواشية بالسلوك السوى دون التباس، أو تصنع، أو إذلال للبشر وهو العقيدة التي فجرت الطاقات وجعلت من العرب مفكرين وعلماء وحكاماً صاغوا التاريخ وفق المعتقد الصحيح.

ويذكر الكاتب أن أصحاب هذا التيار الذى لايفتأ يهاجم الدين وينال من رموزه.. هم أنفسهم الذين يتحدثون عن الهوية والانتماء عبر مقولات الفرعونية، والأفريقية، والنوبية، والقبطية، والقومية هادفين من وراء ذلك إلى طمس الهوية الإسلامية، واعين تماماً بأن إثارة مثل هذه الأفكار مدعاة إلى الاختلاف والتحزب، والتفتت. وهو مايريده الغرب فى فيلقه «العلمانى». لكن الهوية الحقيقية ضاربة بجذورها فى تربة الإسلام «روحاً ولحماً ودماً».

ويرى الكاتب أننا علينا أن ندخل «عصر الصحوة بروح قادرة على التمييز بين الطيب والخبيث» ومن أهم أسس الدخول الوعى بالذات وبالتراث إذ إن «تقليد المظهر الحضارى للغرب» لايعنى أننا نحضرنا وإنما يعنى أننا نستهلك حضارته.. وهو ما وقعت فيه تركيا مثلاً.

وهذا الوعى يجعلنا قادرين على مواجهة الدعوات الانفصالية، أو القومية أو العرقية فالإسلام «تذوب فيه كل الانتماءات الأخرى عربية كانت أو مصرية».

ويرد الكتاب على مقولة «القداسة فى الإسلام» والتي يبرر بها دعاة العلمانية الميل إلى الاستبداد وتقديس الحكام.. ذلك أن الإسلام لايعرف قداسة لشئ سوى القرآن والسنة الصحيحة.. والنظرة إلى الولاة - فى الإسلام - تتسم بمدى صلاحية الوالى لتولى الحكم وسياسة الأمة فالوالى - الحاكم - وكيل عن الأمة - ملتزم بالشورى، حريص على تحديد الاختصاص بين أوجه النشاط المختلفة وهو مايسمى بالفصل بين السلطات. وعلى الحاكم واجبات أساسية يجب أن تتوفر فيه: كحرية الانتماء ومراقبة الشعب له، وحمايته من وساوس النفس واصطفائه للعلماء والمختصين، وصلاحية المؤسسة الشعبية لعزله ان استدعى صالح الأمة ذلك.. فأين القداسة إذن؟!

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى أكثر من آية كقوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» كما بينت الاحاديث الصحيحة تلك العلاقة الواجبة بين الحاكم والرعية. قال صلى الله عليه وسلم «أنتم أعلم بشئون دنياكم» وقال عمر بن

عبدالعزیز فی هذا المجال «إنما أنا واحد منكم غیر أن الله جعلنى أثقلکم حملاً» وها هو عمر بن الخطاب یقول بعد ماردت علیه امرأة وهو یخطب فی الناس «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

وهذا النظام الذی يؤسسه الإسلام یتضمن أساسیات لبناء القیم فی المجتمع.. ولعل مبدأ المساواة أن یکون حاکماً فی إثراء قوانین الدولة وتحقیق أحكام الدین فالناس «سواسية كأسنان المشط» ومن ثم یصبح من العجیب - كما یرى المؤلف - أن یحرص العلمانیون على مقولة فصل الدین عن الدولة ویرددون العبارة الأثیرة لديهم «لا دین فی السیاسة ولا سیاسة فی الدین» وهذا افتتات فی طرح الفکر. فمن الظلم الکبیر «أن نلصق مفهوم «الدولة الدینیة» بالإسلام فتاریخ المسلمین لم یعرف خلع القداسة على الأمراء أو العلماء.

والإسلام لایعترف بما یرسمى بالحکم الإلهی الذی یعطى للحاکم صفات تقترب من القداسة وتجعله ظل الله على الأرض مما یؤدى إلى استعباد البشر وإذلالهم. وما ورد فی القرآن والسنة کفیل بضبط العلاقة بین الوالی والرعية «فالحاکم هو الذی یسوس والدین هو الذی یضبط هذه السیاسة، كما ان الإسلام لایعرف «استغلال الدین لتحقیق مآرب سیاسية طارئة!». قال صلی الله علیه وسلم فی حدیث یؤكد تلك القاعدة «من استعمل رجلاً على عصابة «جماعة» من المسلمین وفیهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنین».

هذه القواعد لیس للعمائم واللحی دخل فیها كما یدعی العلمانیون، بل هی مرتبطة بمصالح البشر ومدى توفر الخبرة بشئون الحیاة وسیاسة الناس وفق المعتقد الدینی الصحیح.. ومن ثم فلیس ثمة عداء - كما یدعوه - بین الإسلام والدمقراطية، فهی لیست عقیده جدیدة وإنما هی «شکل من أشكال تنظیم الممارسة السیاسية فی الدولة».. وهو أمر وضحه الإسلام تمام الوضوح.

ومن ادعاءاتهم التی لاسند لها حدیثهم الدائم عن العداء الذین یکنه الدین للحرية وفهمه للبشر فی خاصية بشرية تتصل بالممارسة السیاسية. وهو کلام مرسل ینبئ عن إصرارهم فی هجمتهم الشرسة على الإسلام، فالإسلام حریص على الإنسان وکرامته، والحرية فی منظومته أمانة وتقتضى الامانة

ان تضبط الحرية «بعدم الاضرار بالآخرين» وهو قيد لا يلغى تلك المساحة العريضة «من تعدد الآراء والاجتهادات».

ولعلنا نذكر على سبيل التندر والفكاهة دعوة بعض العلمانيين إلى إلغاء فريضة الصوم بحجة تعطيل العمل، وكذلك منع الصلاة في العمل، ومنع الأذان في وسائل الإعلام.

وهي محاولات للمزايدة، لكنها تكشف عن عدائهم للدين.. فاعمل فريضة واجبة، والإسلام يدعو إلى تجويد العمل وإتقانه. قال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

لم يترك العلمانيون شيئاً لم يهاجموه، ونالت الحدود في الإسلام قدراً كبيراً من الهجوم، واعتبروها «سمة من سمات التخلف».. وكأنهم يريدون للمجتمع أن ينفلت من قيمه فيفسد التردى الخلقى ويسقط الجميع. وهل إشاعة التحرر من القيد حرية! وهل حديثهم عن المرأة تقدير لها في الحقيقة، أم أنهم يتخذونها آلية من آليات التخريب! إنهم يصكون الاكلشييه وراء الآخر في ادعاء لا يستند إلى حقيقة ولا يصمد أمام الحوار.

يقول «هوفمان» السفير الألماني الذي اعتنق الإسلام في كتابه المهم «الإسلام كبديل».. وكأنه يرد على هؤلاء «إن الحرية الجنسية تدمر المجتمع، وإن الإسلام يتمسك بمؤسسة الزواج ويبنيها على أساس توزيع الأعباء بين الرجل والمرأة بصورة موضوعية مع احترام كل منهما للفروق الطبيعية القائمة بينهما».

وآخر دعاواهم الباطلة الإشارة الخبيثة إلى الخطر الذي يواجه الوحدة الوطنية، وهو يؤكد ارتباطهم بالمراكز المشبوهة بالخارج واتخاذ الغرب لهم أدوات للإساءة والتدخل في الشؤون الداخلية.

يقول الله تعالى في محكم آياته «لا اكراه في الدين» فالإسلام لا يفرق في مجالات الحياة بين البشر.. والعدل في الإسلام مطلق. يقول: ابن تيمية «إن العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، والظلم محرم مطلقاً لا يباح قط بحال».

.. وهكذا راح الكتاب يرصد ادعاءات العلمانية ويرد على أكاذيبها في حيدة وموضوعية مستنداً إلى الأصول الحاكمة في الشريعة.. مما يجعله كتاباً مهماً في مجاله.

الإسلام .. حوار .. للصراخ

فى ظل العداء الذى يستشرى فى الغرب ضد الإسلام، أصبح من الضرورى مواجهة الأمر بجدية عن طريق التصدى المعرفى والإعلامى لحملات التشويه بأسلوب علمى ينفذ إلى العقول ويقطع الطريق أمام التدخل فى شئون الدول الداخلية بحجة الدفاع عن حقوق الإنسان، ومواجهة التطرف، وملاحقة الإرهاب.

ومن واجبنا أن نبرز دور الحضارة الإسلامية التى سادت العالم يوماً، وأشعت بنورها، واقتبس من معينها المعرفى والروحي كثير من الدول على اختلاف الملل والنحل. ولقد قدمت الحضارة الإسلامية عطاءها وفق المنهج الإلهى الذى يؤكد على أن الله هو الخالق البارئ المصور وأن الناس جميعاً سواسية، أحمرهم وأسودهم وأن الله خلق البشر من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا.

قال تعالى «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...».

وإذا كان مناط الحكم فى الإسلام يتسم بالعدل والمساواة.. وأن الدين كله لله فلقد أكد القرآن على حرمة النفس البشرية ونهى عن قتل النفس وجرم مرتكبها. واعتبر الإسلام جريمة إزهاق الروح البشرية.. من أكبر الكبائر، لأن الأصل هو حماية النفس وإحيائها.. قال تعالى «من قتل نفساً بغير نفس.. أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً.. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً».

إن قتل نفس واحدة بلا جريمة تعادل - دلاليًا - قتل البشر جميعاً.. وانظر معى - الآن - تلك الأرواح التى تزهق بلا سبب أو جريرة بفعل القوى الغاشمة ولمجرد استعادة كرامة زائفة.

إن الإسلام يقدر الحياة، ككل الديانات التى تدعو إلى ذلك، ويمجد العقل والتفكير العلمى السليم، ويثير مدارك الذهن فى أعلى تجلياتها، ويدعو إلى أن الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط، وأن الأخوة الإنسانية تجمعهم فى ضفيرة واحدة.. ومن ثم يتحقق العدل الذى هو مناط الحكم الصحيح.. ولقد حرص المسلمون وفق المنهج القرآنى على إشاعة العدل فى البيئات التى يدخلونها ويستقرون فيها، بل وصل الإقرار بالعدل إلى إشاعته حتى مع الأعداء.. لأن الله سبحانه وصف ذاته العلية بالعدل المطلق.. قال تعالى.. «ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا.. اعدلوا هو أقرب للتقوى».

إن جوهر الإسلام يتمثل فى العدل المطلق والسماحة القصوى والعقل المستير.. ولم يكن عجباً إذن أن يتلازم السلام مع منهج الإسلام.. بل يصبح سمة أساسية عليه.. وإن إلصاق تهمة الارهاب به أمر ينبئ عن عدااء حقيقى، وتعصب دينى لا يتلاءم مع الادعاء بالانتساب إلى حضارة غربية معاصرة.

وعلىنا ألا نحكم على دين سماوى بمثل هذه التهمة لانحراف جماعة هنا أو هناك والا انزلقنا إلى إلصاق التطرف المقيت بكل الديانات السماوية منها والوضعية.. لقد حض الإسلام على السلام.. واعتبره قيمة أساسية ومنهجاً لاستقامة الحياة.

قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة...»

وقال تعالى «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها.

وقال تعالى واصفاً ذاته العلية «هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس، السلام...».

وغير ذلك كثير.. فالآيات القرآنية تعلق من شأن السلام وتنبذ القتال والكراهية، لأنه الوسيلة إلى إشاعة العدل والمساواة والحياة الكريمة.

وفى ظل هذا المنهج قدمت الحضارة الإسلامية عطاءها، وأثرت فى حضارة الغرب ولونتها بمنهجها.. ويرى أساتذة الأدب المقارن من أمثال غنيمى هلال،

والطاهر مكي، وحامد أبو أحمد.. أن حضارة العرب المسلمين في الأندلس أثرت في أوروبا تأثيراً قوياً، ومازال أثرها قائماً في الجانب المعماري والمعرفي ويتجلى ذلك في المسجد الجامع في طليطلة ومدينة الزهراء وبرج الذهب، والقياب.. وغيرها كثير. كما تجلت المعرفة في الطب والزراعة والفلك والعلوم والآداب والفنون.. بل وصل التأثير إلى أدب أمريكا اللاتينية التي تكتب بالإسبانية.

وتأثير حي بن يقظان - كنموذج - على الأدب الأوروبي - أسبانيا وإيطاليا - واضح ويكشف عن فكر حضارى عميق الدلالة.

.. إن علينا أن نقدم حضارتنا بما يليق بها ونواجه الإعلام الغربى بقوة. فالإعلام في الغرب يقوم بدور كرهه في إشاعة العداء للإسلام وإبرازه في صورة توحى بالاحتقار والتدنى ويسعى في إلحاح مكشوف إلى أن الإسلام يمثل خطراً حقيقياً على حضارة الغرب وأن اتباع تلك الديانة يتسمون بالبدائية والتخلف والميل إلى التطرف.

ولقد بذل الغرب جهداً خارقاً لإزاحة الآخر بتراته وفرض حضارته هو بوسائطها العلمية والاقتصادية والثقافية والمسلكية على المجتمعات الإسلامية، واستأنس في سبيل ذلك أتباعاً يعملون في دأب على تمكين قيم الغرب وفرض هيمنته الثقافية على العقول والألسنة.. وراحوا يشوهون الدين ويخترقون منهجه، ويجترئون على المقدس .. ويزيحون من اهتمامهم مايتصل بالإسلام وتراثه وإطاره الحاكم.

وزرع هؤلاء الأتباع خطاب الغرب ومفرداته - كالحداثة مثلاً - هادفين إلى إحداث قطيعة مع التراث.

إن رؤية الغرب للإسلام والعرب رؤية عدائية تسربت بشكل قوى إلى عقول المواطنين في الغرب، وهو ما تهدف إليه آلة الاعلام القوية الجامحة. في كتاب «صورة العرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الأمريكية» لمؤلفه الدكتور جاك شاهين.. وهو من أصول عربية، قام الكاتب الكبير رجاء النقاش بعرضه وفيه تتجلى حالات العداء ومحاولات التشويه المتواصلة.. وإنى أقتطع موقفين يدلان على مدى «ترسب الكراهية في النفوس، وحرص الأعداء على تقديم هذه الصورة المشوهة للإسلام.

نشرت صحيفة «ميامى هيرالد» الأمريكية صورة كاريكاتيرية لمخلوق يشبه القرد، له لحية طويلة، ويرتدى عمامة، ويمسك بهراوة، ومكتوب على العمامة «الإسلام» مكتوب فوق كلمة الإسلام كلمة «كافر» وتحت الصورة كلمة على لسان القرد الذى يلبس العمامة ويمسك بالهراوة يقول فيها «نحن نقوم بتفجير النساء والأطفال والأبرياء ونمزقهم تمزيقا كاملا».

وفى موقف آخر قال ناظر المدرسة فى كاليفورنيا لوالدة تلميذة تشتكى من سوء معاملة التلاميذ لابنتها.. «إذا لم يعجبكم يارعاة الإبل البقاء هنا فاخرجوا من المدينة».

لقد ساد بين الغرب ان الإسلام لا يعرف التسامح وأن المسلمين مفرمون بالجنس والتطرف والعنف.. ولا شك أن هذه صورة مغلوطة يتعمدها الغرب لتحقيق مصالحه وفرض هيمنته. فالإسلام له نظريته الثابتة حول العلاقات بين الأمم والملل الأخرى فى ظل الأخوة الإنسانية التى تشمل الجميع المسلم وغير المسلم على السواء.. وفى ظل هذه الحضارة المتسامحة فى قوة عاقلة برز فى كنفها العلماء والأطباء والفلاسفة من كل جنس وملة، وكانوا جميعا يتحدثون بلغة واحدة ويكتبون بلغة واحدة ويساهمون - جميعا - فى تقديم ثقافة عميقة - أثرت فى حضارة الغرب - دون حاجز يعيق التواصل، أو نظرة عنصرية تجلب العداء والكراهية.. وكان منهم الفارسى والهندي، والتركي، والصيني، والإسباني وغيرهم. وهذا كله يؤدى إلى ترسيخ مفهوم الأخوة الإنسانية القائم على حق الوجود والداعى إلى العدل والتسامح والمساواة، والمؤمن بحق الاختلاف دون أن يتحول الاختلاف إلى إدانة بل إلى حماية الإنسان فى اختياره.

قال تعالى: (لكم دينكم ولى دين) فالله سبحانه خلق الكون وأبدعه فى صورة متنوعة تتكامل فى إطارها العام ولا تتنافر وأن هذا التنوع هو مناط الحيوية والفعل والتساؤل.. وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) إنه نوع من احترام الاختلاف الذى يؤدى إلى تعميق الحوار بين الأطراف المختلفة، وإزاحة الفكر المتعصب وتحويل الصراع إلى حوار. مثمر وقيمة التسامح فى الإسلام تنفى ادعاءات الغرب، إذ هى تؤلف بين القلوب وتساوى بين البشر فى الحقوق أحمرهم وأسودهم. وتقوى العلاقة الاجتماعية وهو ما يؤدى إلى نبذ البغض والكراهية.

قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.. وجادلهم بالتى هى أحسن) ولا شك أن الحوار الواعى هو عطاء دال على حضارة واعية تعى أن الاختلاف أمر طبيعى « ولا يفسد للود قضية» وأن الحوار قادر على حل الخلاف ورأب الصدع وزرع المساحات المشتركة بالأخوة الإنسانية.. ويصبح قول الله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قيمة أخلاقية تؤكد على العلاقة السوية القائمة على التسامح والمساواة.

الحدث في ميزان الإسلام

تهب على العالم العربي بين حين وآخر موجات فكرية أو أدبية يشتد هديرها ويصطخب وتعلو أصوات الداعين إليها، منظرين ومحللين، يحيطونها بهالة إعلامية مدروسة تعتمد على الوجود المستمر والإلحاح الدائم، وطرح الفكرة في أصولها وتياراتها، راجعين إلى الغرب في مصادرهم المرجعية، منبئين عن التراث في أصالته ورسوخه وامتداده. وهم في محاولاتهم اللاهثة لزرع مبادئ التحديث والتغريب في الفكر والأدب يسكبون هالات الضوء على من يدورون في فلكهم، رافعين رموزهم الفكرية إلى درجة عالية على حين يطمسون الأصلاء في الفكر والأدب ويصمونهم بالسلفية والرجعية والتعفن.

وتتحول الدعوة إلى غلو متعصب يهدم الثابت من الفكر والأدب، ويروج للعدمية والفوضى وتخريب القيم والثوابت الدينية والفكرية.. ولهذا الغلو المتعصب نتائج السلبية والخطيرة على معطيات الأدب والفكر على مجريات الحياة في البيئة العربية المسلمة.. وأزعم أنه وراء هذا التدهور الذي أصاب الأمة العربية، وأنه أحد أسباب هزائنها.. وموجة الحداثة.. إحدى الموجات الهادرة الأخيرة، التي صخبت وعلت، وملأت المناخ الأدبي بسحب من الضباب والغموض والجموح والمزايدة.. مما يشعر بأنها لا تفترق عما يمكن أن نسميه بالتزليم الخفى الذى يسعى إلى تقويض الدعائم الراسخة وتهديم الثوابت القائمة.

.. والحادثة ركبت ظهر الغلو المتعصب ورمحت به، وأثارت غباراً كثيفاً تطاير حتى طال كل شيء، الدين، والقيم، والتاريخ والتراث، وهى فى جموحها وتعصبها استدعت رموز الوثنية والوجودية والشيوعية والبنائية.. وجعلت منهم جميعاً أقانيم الفكر الحق الواجب اتباعه.. لتحدث الانقطاع المعرفى بين الفكر والتراث العربى الإسلامى.. فيسهل التشكيل الجديد للفكر الجديد.. البعيد عن التراث، المنغرس فى الغرب بكليته.

ولا نستبعد أن يكون وراء هذا الغلو، وتلك الدعوة الملحاحة إلى طرح الدين والقيم والتراث عداء موجه إلى القيم الأصيلة لتحويلها وتغييرها ثم القضاء عليها..

ومن هنا كانت أهمية الكتاب الذى بين أيدينا. كتاب «الحادثة فى ميزان الإسلام» لمؤلفه عوض القرنى..

ولقد استطاع المؤلف أن يتتبع فى دأب واضح محاولات أصحاب الحداثة فيما يقولون ويكتبون، ويتتبع آراءهم فى مصادرها وفيما كتب حولها، حتى كشف الأسرار، وبين مقاصدهم الخبيثة وأهدافهم الخطيرة، وأراح القناع عن عدو سافر يتربص بنا ويعيش بين ظهرانينا، ينثف سمومه باسم الحداثة.

فالحداثة فى الأصل اتجاه فكرى غربى، أفرزه الغرب بتحولاته وتغييراته اتساقاً مع البنية الفكرية والمادية اللتين تحتويانه من جميع الجهات.. ونقلت كغيرها من الاتجاهات إلى العرب دون مراعاة لمقتضيات البيئة والسياسات التراثية فيها.. مما شكل خطورة على اللغة من ناحية.. وعلى الدين من ناحية أخرى.. وهما قضيتان بارزتان فى الكتاب.. فالحداثة - فى الأدب - تهدف إلى إحداث بدائل فى النحو والتركيب اللغوى انطلاقاً من الاتجاه الداعى إلى تفجير اللغة وتفريغها من مضامينها التراثية، بحيث تتحول مع مرور الزمن ومن خلال تحول معانيها وتراكيبها من مضامينها إلى لغة جديدة لا صلة لها باللغة الفصيحة، لغة القرآن. وحتى يحدث لها ما حدث للغة اللاتينية من هجر.. وهو هدف خبيث يسعى فى العمق الكامن تحت دعوى الحداثة إلى النيل من القرآن الكريم.. إن هذا التحطيم للغة مقصود فى حد ذاته وذلك لإبعاد الأمة عن كتابها الكريم وتراثها الخالد.. حتى لا تجد فى النهاية إلا فكر الغرب ترتقى فيه.

يقول أحد منظري حركة الحداثة فى كتاب له بعنوان «الكتابة خارج الأقواس»:

إن من خصائص القصيدة الجديدة ذلك التركيب غير العادى للعبارة.. إذ اختفى كثير من الأدوات النحوية.. وكذلك استخدمت حروف كثيرة فى غير معانيها التى وضعت لها..

.. ولقد حرص الشاعر المحدث على كسر الإطار العام للتركيب اللغوى خلال ثورته على الاتجاه العقلى الذى هيمن على اللغة، كما يقول فى موضع آخر: إن الشعر الحديث له نحوه الخاص «ولنجرؤ قليلاً فنقول إنه ضد النحو»..

إن هجوم الحداثة ينصب على اللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، انطلاقاً من اتجاههم الذى يرى أن الشاعر حر حين يبدع، وحرية تتمثل فى مخالفة المؤلف ومفارقة التراث الإسلامى، وهدم اللغة التى هى الوعاء الشرعى للإسلام وكتابه. وهو اتجاه ملتو يراد به الهجوم على الدين تلميحاً دون تصريح.

ولقد غلبت على لغة الحداثيين المفردات الكسبية والوثنية والماركسية واستدعاء الأساطير والخرافات، بل والسخرية بما جاء فى القرآن الكريم حين تتحول بعض ألفاظه فى قصائدهم إلى ألفاظ مغايرة تصبح فى السياق مخالفة ومفارقة لما ورد بالكتاب الكريم.. ونتج عن ذلك كله هذا الغموض الكثيف الذى يطبع إبداع الحداثيين..

إن أول ما يصطدم القارئ لأدب الحداثة هو تلفعه بعباءة الغموض وتدثره بشعار التعتيم والضباب حتى أن القارئ يفقد الرؤية ويقع فى حيرة وشك.. فما الذى يمكن أن نفهمه من هذا الشعر؟

هو الموت يبدأ من حروف الجر حتى السواد ..

وينسل طيف الأرانب بين المفاصل والأمكنة..

وللنهر بيضٌ يفقسُ بعد المساء الأخير... إلخ..

وهى قصيدة طويلة، ولعلنا نقف على الموت الذى يبدأ بحروف الجر.. لنشير إلى تساوقه مع هدف الحداثة من الإصرار على هدم اللغة ونحوها وتراكيبها.. فكأن الموت فى اللغة والحياة بالتمرد عليها..

والغموض مقصد وهدف فى أدب الحداثة وهو شكل تعبيرى يلح عليه مبدعو الحداثة ومنظروها إلحاحاً شديداً، ذلك أن الشكل الغامض يحمل قوالب فكرية شحنت فى كثير من نماذجها بالأفكار السامة، الداعية إلى مفارقة المؤلف والخروج عليه، فضلاً على أنه يوحى بالتنصل من مسئولية الكلمة حين يصاغ المعنى فى ثوب غامض من التركيب.. وكذلك.. إماتة روح الشعر والإبداع وإفراغ الشعر من دوره فى الإمتاع والرصد والتخميس والمواكبة.. وكذلك نبذ الثوابت كالقيم والشريعة وتجاوزها بحجة التجديد والإلحاح عليه.. إذن فالغموض قناع، وهذا القناع يتيح لهم النيل مما يريدون، دون أن يقعوا فى المسائلة، فالنص غامض، والمعنى بالتأويل. فمن أين يأتى الحرج؟

يقول أحدهم فى قصيدة له بعنوان «المفردات»:

أرضنا البيد غارقة.
طوّف الليل أرجاءها.
وكساها بمسجدها الهاشمى.
فدانت لعاداته معبداً.

ويقول:

رأيت المدينة قـانـية.
أحمر كان وقت النبـوءة.
منسكباً أحمر كان أشعلتها...

ولعل الإسقاط واضح. وكلمة الهاشمى الذى كسا البلاد بالمسجد حتى صارت معبداً محاطاً بأرض قاحلة، توحى بالمراد. إنه محمد الذى شرفت به البلاد والبرية جمعاء.. بلغ عن ربه الرسالة..

لكن المعنى تحول فى القصيدة إلى تجرؤ على الإسلام ورموزه الباهرة. ومن ثم دعا فى القصيدة إلى الثورة والتمرد والاستهزاء بالقيم.. كما أن الإلحاح على اللون الأحمر له دلالة المعروفة.

هذا التجرؤ على الإسلام وقيمه هدف من أهداف الحداثة، وهو الهدف التالى مباشرة للتخطيط للغوى الذى يمارسونه فى شكل القصيدة الغامض.

فالإسلام لم يسلم من أذاهم حين اعتبروا أن مبدأ الحداثة له رؤية خاصة للكون والحياة والإنسان، وأنه يمنح الحياة بعداً جديداً يهزها هزاً، وهم فى هذا يبتعدون عن التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان.

ولقد برز التجرؤ على الإسلام فى أشكال متنوعة.. تستهزئ بالإسلام حيناً وتقال من الرسول حيناً آخر، وتتعامل مع مفردات القرآن تعاملًا تحويلياً يفرغها من المراد.. حيناً ثالثاً.. وهم يرون فى ذلك كله - الإسلام وقيمه ورموزه - قيوداً وأغلالاً يجب أن تحطم وتكسر. وكل الموروثات يجب أن تزول. ومن ثم تجد انقطاعاً فى المصدر المعرفى الحداثى لكل ما يتصل بالتراث فى حين تجد أسماء الرموز الحداثية تطل فى كل مكان وفى كل ندوة، وعلى مساحة أية صفحة من صفحات الصحف فى ملاحقها الأدبية التى تسلوا إليها وأحكموا القبضة..

يقول أحدهم: «ينبغى أن نخلع جبة الأصول وقلنسوة الوعظ لنترك للشاعر حرية مساءلة التجربة ونقض الماضى وتجاوزه...» إن كل شىء قابل للتغيير، العقائد والأخلاق والسلوك..

وهذا النقض للماضى والتجاوز له من لوازم المنهج المادى فى التغيير القائم على «الديالكتيك».. والنقض يعنى التغيير عن طريق العنف الثورى، ولكنهم لا يفصحون عنه، بل يتسترون وراء الرموز حتى لا ينكشف أمرهم. ويلقون بثقلهم فى مجال الإبداع الذى يغطى موقفهم الفكرى. يقول واحد منهم فى ندوة الحداثة والتجربة الشعرية فى الخليج: «وأؤكد أن القصيدة الجديدة ظلت فى معزل عن الصدام المباشر مع رموز التخلف، لأنها تصطنع دائماً رموزاً بديلة...»

وعلى هذا فلم تعد الحداثة مجرد قوالب أدبية وأشكال تعبيرية للشعر والنثر والنقد، بل هى منهج شمولى أتوا به لكى يمنح الحياة بعداً جديداً وينشئ فيها واقعاً جديداً.. يقول واحد من منظرى حركة الحداثة: «للحداثة مفهوم شمولى، هو أوسع مما منح لنا، ومما ارتضينا لأنفسنا، ذلك أن الحداثة نظرة للعالم أوسع من أن توطر بقالب للشعر.. إنها النظرة التى تمسك الحياة من كتفيها تهزها هزاً...»

إن منهج الحداثة القائم على فلسفة النقيض لكل ما هو موجود يستمد

جذوره الفكرية من مناهج فلسفية مادية، عانت منها البشرية كثيراً من الويلات.

وسيطرة الفلسفة المادية على فكر الحداثة تتضح على الإبداع والتظير مسحة من الإلحاد والكفر والتجرؤ على القيم الأصولية.. ولقد أعلنها أدونيس... أحد رموز الحداثة الكبار... صريحة مدوية فى كتاب زمن الشعر حين يقول: «يلزمننا تحطيم الموروث الثابت، فهنا يكمن العدو الأول للثورة..» وهو نفسه الذى يقول فى تجرؤ واضح: «كاهنة الأجيال.. قولى لنا شيئاً عن الله الذى يولد، قولى.. أفى عينيه ما يُعَبَّد؟» ويقول: «مات إله كان من هناك يهبط من جمجمة السماء..»، وتأثيره القوى على كثير من شعراء الحداثة فمنهم من تأثروا بموضوعاته، ومنهم من قلّد صياغته، ومنهم من سار على دربه الفكرى المتمرد.

إن هذا الوباء - كما يرى المؤلف - قد انتشر وعمّ وأصبح يهدد بجرف كل ما عداه، وهو لم يأت مصادفة بل كان نتيجة خطط معدة وأساليب متبعة، ودراسات مستفيضة حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه. ولقد بذل الحداثيون من الجهد والتضحية والصبر والمعاناة ما يجعل ما حصلوا عليه من ثمار موازياً لما بذلوه. لقد سبجوا ضد التيار وقاوموا بشدة وجرأة عجيبة حتى أوجدوا لهم تياراً خاصاً علا هديره على أصوات الآخرين..

ومن ثم فإن الأمر خطير، والموجة عاتية، والمنهج المراد منهج شمولى يهدم كل شئ، الدين، والتراث... مما يستدعى المواجهة والحسم أمام هذا الاتجاه الحداثى الخطير.. والكتاب وقد كشف خطر ذلك كله، يلقي مسئولية عظيمة وجسيمة على عاتق العلماء والمفكرين والمبدعين الأصلاء للتصدى لهذا الخطر وإيقاظ الهمم وتبنيه الغافل ونصح وتوجيه الواقع فيه..

ثقافة وإعلام

●● يواجه الإسلام هجمة شرسة من أعدائه الذين يتخذون من الفكر العلماني منطلقاً لهم.. وهم يعارضون الدين كنظام معرفي يؤسس لقيام مجتمع له طابعه الديني، ويدعون إلى الانكفاء الذاتي - إن صح التعبير - بمعنى أن يقتصر الإسلام على الشعائر التعبدية وأن يبتعد عن الواقع وحركة الحياة المدنية.. وهم يلحون في دعواهم إلحاحاً يكاد لا ينتهي على القطيعة المعرفية مع الدين، وحصره في مجاله التعبدى.. وهم في سبيل تجميل الخبيث يرفعون شعار التنوير لسلخ الذات المسلمة عن تراثها ووقوعها تحت سيطرة الآخر الغربى..

.. وتحول قطاع المثقفين إلى قُطَاع طرق بعدما انهارت الأيديولوجيات الكبرى كالشيوعية، وسطوا على منابر الإعلام والثقافة ووسائل تشكيل الوجدان، وسايروا موجات العنف والإرهاب وأرجعوها إلى هذا الخلل في الحرص على الشريعة، وراحوا يهدمون كل قيمة أو معنى أو مبدأ يرتبط بالإسلام.. وهذا الحرص الشديد على هذه المواجهة يشير إلى إمكانية استخدامهم لدى الغرب للتخاير، أو التخريب، أو تمهيد «الفضاء الفكري» لمرحلة الغزو.. ولعل هذه الخدمات أن تكون مقابلًا للإنعام عليهم بالجوائز، والإعلام، والتدريس بالجامعات، ومندوبية الثقافة الغربية، والانضمام إلى مراكز حقوق الإنسان ومراكز البحث، واحتوائهم تحت الجناح.

وهؤلاء العلمانيون.. ومنهم من يتسيد أجهزة الثقافة الكبرى.. تلونت نظرتهم إلى الإسلام نصاً وشريعة بمرجعية الفكر ومدنية التوجه.. فذهب البعض إلى نزع التقديس عن القرآن الكريم، الذى يوصف فى أدبياتهم بالنص أو الخطاب الدينى.. تمهيداً للدعوة - عبر دراساتهم - إلى التحرر من سلطة النص، ومن ثم التحرر من السلطة المطلقة، والمهيمنة.. ولقد ألحوا فى كتاباتهم على فكرة ربط النص بالواقع.. لغة وثقافة ومفاهيم، من أجل أن يبرزوا محور الجدل فى علاقاته مع الواقع، إذ تتجدد فى النص الدلالات الحاكمة بتجدد حركة الواقع.

وهم يرون أن الواقع بتدخلاته، وتفاعلاته واحتوائه لحركة الزمان والإنسان قد أضفى عنصراً أسطورياً على المخيلة البشرية، وتسربت الأساطير إلى النص الدينى، وتمثل ذلك فى النظرة إلى المرأة، وفرض الأحكام التى تقيد من حركتها وتقلل من كيانها.

وهؤلاء هم الذين يحتضنون الجانحين من الكتاب، ويدافعون عنهم على مستوى الداخل والخارج.. وهم بذلك يساعدون الغرب فى محاربة المسلمين من داخل نفوسهم، واقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوبهم.. وحكموا بذلك على أنفسهم بالعمالة الفكرية وهى أقسى أنواع الخيانة..

الشر الأمريكى

تتكشف الأسرار يوماً بعد يوم عن العلاقة القوية بين الولايات المتحدة وجماعات الإرهاب، والنبأ الذى يشير إلى تجميد أموال بن لادن وتنظيم القاعدة فى بنوك أمريكا يثير كثيراً من الشكوك.. فإذا كانت تطالب به منذ الاعتداء على سفاراتها بالخارج من زمن بعيد، فلماذا ظلت حساباته مفتوحة تتلقى المال وتستخدمه فى عمليات متطرفة؟..

وكان من المتوقع - بعد أن أدى دوره فى زعزعة الوجود السوفييتى فى الدول الإسلامية الواقعة تحت هيمنتها - أن تحاصره مالياً، وتجفف منابع المال التى تساعده على فعله وعملياته. ولكن الحقيقة تقول إنها تستخدم هذه التنظيمات من أجل تسييد اتجاهاتها، وفرض سيطرتها، وتقردها بالقرار، وممارسة القمع الإرهابى ضد حرية الشعوب. وهو شر مستطير عانت منه شعوب العالم.

وكثير من قيادات الإرهاب التى تسعى أمريكا الآن إلى مهاجمتهم ومحاربتهم هم رباؤها، وحاصلون على جنسيتها، وينعمون بحمايتها، وبدعمها المالى، والعسكرى. إن الغرب - وأمريكا على رأسه - يحتضن تلك القيادات ويحميهم، ويمنع تسليمهم لدولهم الأصلية، ويترك لهم حرية الحركة وعقد المؤتمرات والتتديد بأنظمة دولهم القائمة للحرية والعمل المدنى كما يرددون، ويهيىء لهم أماكن التنظيم والعسكرة.

ولقد طالبت مصر بعدد من المتهمين فى عمليات إرهابية وقعت على أرضها، لكن الغرب احتضنهم وأعطتهم أمريكا جنسيتها.. وظل الإرهاب يشن عملياته ضد الدول دون أن ينال الغرب شئ من هذا العنف والدمار.. حتى إذا حدث ما حدث انقلبت الدنيا وراح الشر ينثر سمومه فى كل اتجاه. وكأن الأرواح التى سقطت فى أمريكا من طينة مغايرة للأرواح التى سقطت بفعل الإرهاب فى دول أخرى!.

فالإرهاب - فى ظن أمريكا - طوال العقدين الماضيين، إنما هو داخل فى إطار حرية التعبير، وحقوق الإنسان، والدفاع عن الديمقراطية وقيم المجتمع المدنى وحرياته، أما ما حدث لها فى نيويورك وواشنطن فهو حرب على الديمقراطية، والمستقبل.. وهو إرهاب يقتضى مواجهته.. وكأن الأرواح التى تسقط موعودة بفعل الإرهاب لا تساوى شيئاً فى حساب أمريكا.. الذى يشى موقفها بعنصرية مقبلة واستعلاء مكروه.

إن إرهاب إسرائيل ضد الفلسطينيين لا يحتاج إلى دليل، ومع ذلك فالدولة المهيمنة على العالم تستخدم الفيتو ضد كل ما هو إنسانى ونبيل، وتساهم فى ترسيخ العدا، وتطعن الإنسانية، وتمارس شراً مستطيراً لم تتج منه دولة.

إن أمريكا - كعاداتها - تحتفظ بملفاتها القابعة فى أجهزتها ثم تبرزها فى لحظات الفتن والأزمات وتهدد بها كل من لا ينضوى تحت هيمنتها ولا يسلك درب الحرب الذى تحدده.. وهو سلوك ميكيا فيلى يتلاءم مع النهج الأمريكى الذى يجعل من الغاية مبرراً للوسيلة..

ومع طبول الحرب التى تدق فإن العالم قد بات محكوماً بغوغائية تبعده عن العقل.. فالإرهاب لا يواجه بالإرهاب.. وإلا تحول إلى نوع من الانتقام الذى لا يسعى إلى قيمة، ولا يهدف إلى معنى، ولا يؤسس عدلاً.

ولقد كشفت العملية الأخيرة عن عدا سافر للإسلام.. وأضحى العرب والمسلمون هم الهدف الأول للتعصب الدينى، واعتبر ما يحدث حرباً صليبية.. وساهمت أمريكا فى صناعة الادعاء بنمطية الإسلام المتعصب.. ويرى بول فيندلى.. السيناتور الأمريكى المعتزل «أننا - فى أمريكا وحدها - وفى أذهان عامة الناس نجد الربط الوثيق والمغلوط بين الإسلام والإرهاب. وهذا التصور - كما يقول - ناتج عن الصراع العربى - الإسرائيلى وما يمارسه اليهود من

ضغوط في أمريكا.. وأوضح أن اليهود الأمريكيين يشعرون بأن عليهم أن يقاتلوا ويستمرروا في القتال ضد أعداء إسرائيل ما دامت إسرائيل نفسها في حالة حرب..

وأمریکا التي تبحث عن الأشباح تتجاهل صانعي المؤامرات، ومدبري الإرهاب.. وهم اليهود الذين يعيشون معهم ويحكمونهم.. والذي قال فيهم بنيامين فرانكلين:

«يتهدد الولايات المتحدة خطر هائل.. يتمثل في اليهود.. فهم يهبطون بالمستوى الأخلاقي.. ويعرضون مؤسساتنا لأشد الخطر».

وإذا كانت أمريكا تزهو بقيمة أساسية ترى أنها وراء التقدم الكبير الذي جعل منها زعيمة للعالم ومهيمنة عليه.. وهي قيمة الحرية التي حققت لها نجاحات كثيرة، وكل وسائل المعرفة الأخرى تأتي تابعة لها ومؤصلة لأبعادها فإن الوقوع تحت سيطرة اللوبي الصهيوني ينال من هذه القيمة، ويشكك في قدرة أمريكا في حماية قيم الحرية القائمة على أرضها ووفق دستورها الحاكم.. ولقد كشف حادث اقتحام شركة «أنفوكوم» لخدمات الإنترنت بولاية تكساس.. وهي موجهة لخدمة العرب والمسلمين وتقديم القضايا الدينية الصحيحة في مواجهة حالة العداء للإسلام.. عن التشكك في قبول الآخر.. مما يفقد قيمة الحرية مغزاها.. وعن قوة اللوبي الصهيوني في فرض إرادته على أمريكا حين يوحى إلى الإدارة الأمريكية بأن الشركة تمارس نوعاً من العداء لإسرائيل، وتبث المعلومات التي تبين حقيقة العنف الإسرائيلي والإرهاب الدموي الذي يقع في أرض فلسطين في ممارسات وحشية لم يعرف البشر لها مثيلاً..

أغلقت المباحث الفيدرالية الشركة، وسحبوا منها التصريح بتقديم الخدمات المعرفية، ووسائل المعلومات الإعلامية.. وإذا كان هذا التصرف يعتبر تعسفاً في استخدام الحق فهو ينال من قيمة الحرية حين يتحول الأمر إلى نوع من الحملات ضد العرب والمسلمين - وهم يتمتعون بالمواطنة الأمريكية - فضلاً على حجب المعلومات وحقوق المواطن في التعرف عليها.

وبات واضحاً قوة الضغط الذي تمارسه إسرائيل منذ اندلاع الانتفاضة على صناعة الرأي وتحويله ضد العرب والمنظمات الإسلامية.. والحد من زيادة النشاط السياسي الذي تزايد في الآونة الأخيرة.

وإذا كانت إسرائيل استطاعت أن تمارس هذا الدور لصالحها فإن العرب قد عجزوا عن إحداث تأثير ما فى رأى العام الأمريكى لصالح قضاياهم العادلة ولم نستطع أن نجعل أمريكا تقف مع السلام العادل، وتدافع عن قيمة «الحرية» التى ترى أنها أساس الحكم.

وفى ظل افتقاد الدعم العربى للمنظمات العربية فى أمريكا استطاع اللوبى الصهيونى أن يضغط على الساسة فى أمريكا ويهددهم بفقد الأصوات فى الانتخابات وحرمانهم من الدعم المالى ومن ثم راحوا يقطعون الطريق على المسلمين والعرب الأمريكان، ويردمون المسافة بينهما بالعداء، والتوجس، والخوف من العنف، والربط بين الإسلام والإرهاب..

وما حدث يوم الثلاثاء الحزين وما تبعه من مأس وآلام.. دليل على ذلك.. فلقد انطلقت آلة الإعلام الواقعة تحت سيطرة اللوبى الصهيونى.. لتربط بين الانفجارات التى حدثت فى مركز التجارة العالمى وفى مقر وزارة الدفاع وبين المنظمات العربية الإرهابية وفى مقدمتها الجماعات الفلسطينية التى تمارس العنف والإرهاب على الأرض فى فلسطين وإسرائيل.. وفى الخارج حتى طالت رموز أمريكا.. الحرية.. والقوة فى المال والسلاح.. وأن الأمر يحتاج إلى أن تنظر أمريكا إلى الأمر نظرة جادة، وأن تؤازر إسرائيل فى موقفها السياسى والأمنى.. وأن تسمح لها باتخاذ الإجراءات القصوى..

وتهافت أمريكا فى كل أمر يتعلق بإسرائيل شئ واضح ولا يحتاج إلى دليل.. والانسحاق وراء ضغوط اللوبى.. سينال من قيم أمريكا الأساسية.. ومن قدرتها على حماية استقلالها فى الرأى والقرار من شراسة الاحتلال الإسرائيلى!!

ولقد أشار المسئول الأمريكى فى ظل النكبة المأساوية المباشرة إلى أن «الحرية ذاتها تعرضت لهجوم من جبان لا عقيدة له، وسيتم الدفاع عن الحرية».. ومع ذلك فلقد تعرض العرب والمسلمون الأمريكان إلى مضايقات كثيرة، واعتداءات مؤثرة، واستشرت حالة العداء ضد الجاليات الإسلامية، وتوجهت الإدانات إلى جماعات إسلامية، وأحيط الجميع بمشاعر عداوية بلا جريرة.. وبلا سبب.. وربطت إسرائيل بين عمليات الانتحار التى تمت بالطائرات وعمليات الاستشهاد فى فلسطين كنوع من تحريض أمريكا لاتخاذ موقف عدائى..

وسارع تجمع المنظمات الأمريكية المسلمة وأدان الاعتداءات غير المسبوقه
التي أصابت أمريكا وأكد أن المسلمين الأمريكيين يدينون الهجمات الإرهابية
الجبانة التي استهدفت مدنيين أبرياء..

وإذا كانت الجماعات الإسلامية فى أمريكا تسعى إلى تغيير صورة الإسلام
فى الإعلام الأمريكى - فى مواجهة آلة إعلامية يهودية جبارة - فإن الدعم
العربى والإسلامى أمر ضرورى لإنجاح تلك الغاية النبيلة وتقديم الصورة
الصحيحة للإسلام.

الدين والحرب في زمن بوش

(الدين والحرب..) كتاب صدر في سلسلة «كتاب الجمهورية» .. تأليف الأستاذ مؤمن الهبّاء .. وفيه يتوقف أمام محورين مهمين شغلا العالم في العقدين الأخيرين .. وإذا كان الدين يدعو إلى المحبة والعدل والسلام، والحرب تأتي دائماً بالخراب وتشيع العنف والتوحش، فإن السياسة ومبادئها المراوغة قادرة على فك التناقض واستثماره، وفقاً لأهداف محددة، ظاهرة أو مسكوت عنها.

والكاتب مهموم بقضايا الفكر الديني والسياسي في ظل استثناء ما يسمّى بالعوامة وتجاوز الحدود والقيم الحضارية معاً. وقدّم في هذا السياق كتابه المهم (التتوير.. لا التضليل) والذي أبرز فيه رؤيته الموضوعية للخطاب الديني الصحيح بعيداً عن السلفية الجامدة، أو فكر الحداثة الجانح.

في (الدين والحرب) نلاحظ انضباط المنهج، واستقصاء المعلومة في مظانها المختلفة، والرجوع إلى المراجع والكتب والمقالات والأعلام، لتأكيد الفكرة، وسهولة سرد الموضوع في لغة متميزة وواعية، والوعي.. الناضج بأصول الفكر الديني الغربي والذي ساد في العقدين الأخيرين كالصهيونية المسيحية، وتحريفها للنصوص الدينية لتبرير العنف والهيمنة.

والكتاب يرصد ظاهرة سياسية اتخذت من الدين هدفاً مقصوداً، وشاع هذا التوجه حتى غلب على توجهات بعض الدول والمنظمات. وانصب العداء

على الإسلام، رغبة في الإساءة وصرف العقول عن النظر في حقائقه الكبرى وإشغال الفكر العالمى بما يسمى «الإرهاب».. والذي يُرجعونه إلى الإسلام زوراً وبهتاناً.. ومن ثم تجرأ البعض من الأدباء والمفكرين والقساوسة والفنانين فأسأعوا إلى الإسلام ومبادئه ورسوله الكريم.

ولعل ما قاله بابا الفاتيكان وما ورد فى الرسوم المسيئة للرسول دلالة على هذا التوجه.. ويرى الكاتب أن الضعف الذى حل بالمسلمين، والتدهور فى الحياة السياسية والاقتصادية، السبب فى تجرؤ الغرب على الإسلام، مما أدى إلى تكريس الخنوع والذى وصل إلى حد المطالبة بتغيير المناهج التعليمية فى الدول العربية والإسلامية (والتخفيف من جرعة الدين.. وصولاً إلى تخفيف منابعه.. والتركيز على العبادات وتجاهل آيات الجهاد والشهادة).

وإذا كان بوش قد ركب الموجة وحدد مسارها، فإن عدداً من العناوين كصدام الحضارات، ونهاية التاريخ راحت «تبرر الحرب ضد الإسلام والمسلمين باعتباره العدو الجديد الذى يتحدى الحضارة الغربية».. مع العلم أن أمريكا لعبت «دوراً كبيراً فى تصعيد فكر الجماعات الأصولية».. واستثماره لتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية، حتى جاء (بوش) الابن ونجح فى أن «يضع الإسلام موضع الاتهام والصدام».

لقد سار بوش الابن على خطى جده الأكبر الذى ساهم فى الإساءة إلى الإسلامى وإلى الرسول الكريم، وذلك فى كتابه الذى يكرس لفكر الصهيونية المسيحية.. وقد ترجمه الدكتور عبدالرحمن الشيخ تحت عنوان (محمد مؤسس الدين الإسلامى ومؤسس امبراطورية المسلمين).. وفى هذا الكتاب اجترأ كثير على الرسول. فالإسلام بلاء جاء به محمد، وهو نفسه إنسان الخطيئة، وسوط عذاب على الكنيسة، وينبغى ألا تقوم للإسلام قائمة فهو العدو الأول..

والصهيونية المسيحية التى تقف وراء هذا الجنوح هى نوع من «تهويد المسيحية»، آمنت بعودة اليهود، وعودة المسيح ليملك ألف سنة، وسُمّو بذلك بالألفية.. وهى توازى اليهود وتدعم الصهيونية.. وهو ما أدى إلى تكريس الأصولية فى أمريكا مما جعل العالم أكثر خطراً.

ولقد آمن بوش بالصهيونية المسيحية وراح يردد أنه مكلف من الله وقال في تَهَوُّر «دينى»: «إن الله أمره بقتال طالبان ففعل، وأمره بمحاربة صدام حسين ففعل».. «ومع كل صراع يسارع المسيحيون الصهيونيون لدعم إسرائيل».. لأنه يُسرَّع بظهور المسيح. وأن العودة لن تتحقق إلا بإعادة بناء الهيكل.

ومثل هؤلاء يستخدمون الدين لفرض السيطرة والهيمنة وإعادة تشكيل العالم.. وكان البابا شنودة واعيا بما يقوله هؤلاء، فلا علاقة لقولهم بتعاليم موسى أو السيد المسيح، وأنهم يستندون إلى القوة العسكرية. فبوش كما يقول «خارج عن تعاليم المسيح. وهو ينظر إلى البترول في المنطقة ويؤيد ما تقوم به إسرائيل في فلسطين».

.. يرجع الكاتب إلى مقالات (جهاد الخازن) فى جريدة (الحياة) وهو يقارن بين العنف الذى ورد فى التوراة، ويقارنه بما جاء فى الإسلام.. ليمرر مناطق العداء والعنف فى التوجه الصهيونى المسيحى.. والترضى بالدين.

.. فى سفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس يقول الرب: «أمت الرجال والنساء والأولاد وحتى الرضع والبقر والغنم والإبل والحمير...».

.. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصاياه «.. لا تغدروا ولا تغلوا، لا تقتلوا امرأة ولا طفلا ولا شيخاً فانيا.. لا تذبحوا إلا لمأكلة ولا تقطعوا شجرا..»

.. فأين يكمن العنف؟

ولاشك أن التنوع هو سنة الحياة.. وكما يرى الكاتب فى رؤية موضوعية: «أن التباين والاختلاف سنة الكون، وأن العالم لا يمكن أن يكون لأمة دون الأمم، ولا لدين دون الأديان، ولا لحضارة دون الحضارات.

.. والبعض تصوّر من واقع الإحساس بالقوة أن اللحظة التاريخية قد حانت لهزيمة الإسلام، الذى اعتبر المنافس الأكبر فى معركة صدام الحضارات.

ولقد كانت سنوات بوش وبالأعلى العالم وقيم السماحة والعدل والمحبة، فقد وفّرت المناخ للتجرؤ على الإسلام ونبي الإسلام والقرآن الكريم، وعلت دعوات تبرر الحرب ضد الإسلام باعتباره -كما يدعون- ديناً يدعو إلى العنف والإرهاب، واستخدم الدين من أجل تحقيق الهيمنة وفرض السيطرة

الأمريكية، كما لعب بوش دوراً كبيراً (فى تصعيد فكر الجماعة الأصولية التى تسىء إلى الإسلام) ..

ومع ذلك فإننا لا نعدم أن نجد بعضاً من المفكرين فى أمريكا يعارضون منهج بوش فى سياسته: تقول مادلين أولبرايت الوزيرة السابقة: «الإرهاب ليس ملازماً للإسلام، وعدونا هو عدو الإسلام أيضاً».

.. تعددت مظاهر العداء للإسلام بعد سبتمبر ٢٠٠١ حيث استغل بوش الموقف وغزا العراق وفرض الهيمنة على المنطقة.

ولقد شحنت الكراهية -كما يقول المؤلف- العسكريين الأمريكيين الذين اعتدوا على المصحف الشريف حين وضعوه فى المراحىض وبالوا عليه.. كما صدر فى أمريكا كتاب بعنوان (الفرقان الحق) بديلاً عن القرآن الكريم ويزعمون أنه وحى: «ولقد أنزلنا الفرقان الحق وحياً وألقيناه نوراً...» والكتاب جاء على هيئة الآيات القرآنية: «يا أيها الذين كفروا من عبادنا لقد ضل رائدكم وغوى. إن هو إلا وحى إفك يُوحى علمه مريد القوى.. فلا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس إذ ينزل عليه رجزاً...»

وفيه إثارة للشبهات حول شرائع الإسلام وأحكامه والتشكيك فيها وكذلك ما يتصل بالمرأة والزواج والطلاق والشهادة، والإرث... وغير ذلك من الموضوعات التى أثارها المستشرقون قديماً.

ومن مظاهر العداء -فى هذه الحقبة- استخدام الفن فى الإساءة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم).. مثل إنتاج أفلام تحرّض على الإسلام وتصوره عدواً للمرأة، وداعياً للإرهاب، ومجّحفاً بحق المثليين.. وجاء فى فيلم (الخضوع) الهولندى.. عرض لنساء منقبات عاريات مكتوب على أجسادهن بعض آيات من القرآن.. ودخل الفن التشكيلى دائرة العداء، ففى الدانمارك صوّر البعض الرسول بإرهابى يضع القنابل فى عمامته، أو يربط حزاماً من المتفجرات على وسطه.. كما سوقوا دمية للنبي مع عائشة فى سن ٦ سنوات، وفى وضع غير كريم.

.. ويرى الكاتب مؤمن الهبّاء أن الرسوم المسيئة كشفت عن أننا نواجه الغرب العلمانى العنصرى الذى استسلم للوثنية الإغريقية (التي تمجد القوة والبطولة.. والاستهانة بالمقدسات).. والغرب العلمانى يعانى من

الازدواجية.. فتحت ستار الحرية استهتان بالأديان، لكنه لا يجروء (على المساس بالأساطير التي يروجها اليهود.. مثل أسطورة المحرقة.. وأفران الغاز.. والسبب أن اليهود صارت لهم قوة مادية ومعنوية طاغية..)

والعداء للإسلام متأصل فى المناهج التعليمية الأمريكية التى شوهدت مبادئه وقيمه وأساعت إلى الرسول.. فالكتب المدرسية تصوّر رجل الدين طاغية منتقما، والمسلمين جهلاء يميلون إلى العنف، وتصور الدين على أنه سبب للتخلف.. وعداؤهم للمسيحية مستحكم.

يقول بول فندلى عضو الكونجرس الأمريكى فى شهادة له.. «ضللت بشأن الدين الإسلامى عندما كنت أدرس فى مدرسة الأحد الأرثوذكسية.. قالت لنا معلمتنا.. إن المسلمين شعب ميال للعنف، يعبد إلها غريبا.. وكانت تسميهم (محمديين).. إنهم ليسوا مثلنا.. وظللت معظم حياتى أحمل صورة عن (المحمديين) الجهلة الذين يضمرون الأذى للآخرين».

ولقد وقع البابا «بنديكت»، فى الخطأ.. حين ساير هذه المظاهر العدائية، وأبان عن توجه عدائى حين نقل عبارة لامبراطور بيزنطى فى القرن ١٤ يقول فيها: «أرنبى شيئاً جديداً أتى به محمد، فلن تجد إلا ما هو شرير كشره الدين بحدّ السيف..»

وأدى قوله هذا إلى الاستياء الشديد فضلاً على تلاقى رأى مع بوش حول الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام.. وأن هذا الموقف إنما هو عائق جديد لحركة الحوار بين الشرق والغرب.

ولقد قام بعض المفكرين بالرد على البابا بعقد مقارنة بين العنف الدموى فى اليهودية وما ورد فى القرآن.. هادفين إلى تصحيح المفاهيم السائدة أمام هجمة بوش ومن معه على الإسلام، فلقد دخل الرئيس الأمريكى -كما يقول المؤلف- وإدارته (فى حرب صليبية حقيقية ضد الإسلام والمسلمين بعد أن جعلهم هدفه السافر.. ووضعهم تحت لافتة الفاشية الجديدة فى العالم النامى..) ووصفهم بالمسلمين الفاشيست.. حتى أصبح المصطلح المصكوك (الإسلاموفوبيا) يثير الرعب والخوف ويشيع التوجس.

يقول جهاد الخازن فى مقال له عن العنف ما بين التوراة والقرآن.. إنه يعتمد على ما ورد فى التوراة للرد على الهجمة الشرسة على الإسلام.. لقد

فتح يشوع بن نون عدة مدن وقتل أهلها في مجازر متوالية وكل هذا بأمر رب اليهود. قال الرب: إني قد أسلمت إلى يدك ملك العيّ (مدينة) وشعبه ومدينته وأرضه فتفعل بالعي وملكها ما فعلت بأريحا وشعبها.. لقد قتل بنو إسرائيل جميع السكان.. وذلك بأمر الرب!!

ولقد نهى الإسلام عن قتل النفس، واعتبر قتل النفس بغير عذر فساد في الأرض، وقتلا للناس جميعاً.. (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً..)

وفي شهادة لصحفي أمريكي شهير يشجب فيها هذا التوجه يقول: «أصبحت السياسة نضالاً وحشياً في زمن بوش فلا حساب لقيم ولا حساب حتى لمصالح أمريكا..»

إن كتاب (الدين والحرب في زمن بوش) حافل بموضوعات عدة حول ما يتصل بالعداء للإسلام والكتاب الذين استغلوا الموقف وأمعنوا في الإساءة وكتبوا كتباً أدبية وسياسية تمتلئ بمقولات مغرضة، انضواءً تحت راية العداء الغربى فضلا على شهادات لمفكرين غربيين يؤازرون هذا التوجه أو يعارضونه.

يقول الكاتب مؤمن الهبّاء في مقدمته عمّا يُسمى الحرب ضد الإرهاب، وهي في الحقيقة صورة جديدة من صور الحروب الدينية:

«لقد ظهرت تجليات عديدة لهذه الحرب، اختلط فيها ما هو ديني بما هو سياسى، واستخدم الدين أسوأ استخدام لتبرير الأطماع التوسعية ونزعات الهيمنة، وتم اختراع نظريات ارتدت أقنعة أكاديمية ودينية وثقافية لتسويق الحروب.. (لمواجهة) الدين الذى يزعمون أنه أنتج هذا الإرهاب.. ولم تعد الحرب في فلسطين وأفغانستان والعراق والصومال تدور في المحور السياسى وإنما صارت في عهد بوش تدور في المحور الدينى..»

فَبَسَّارٍ فَبُورِيَهْ

في ذكره المصطفى .. (ﷺ)

يدور الزمان دورته حتى إذا صادف شهر ربيع الأول ازدهى وتألق وأثار الحنين إلى العبق الطاهر.. ففي ساعة عبقرية من ساعات الزمان في ربيع الأول بعد العاشر بقليل.. تنفس الصباح في أرض مكة عن بدر إنساني مكتمل البهاء، يشع نوراً يغطى على كل الأنوار المنبعثة من القمر الذي ينسحب أو من الشمس التي تكاد تبزغ..

كان الميلاد إيذاناً بتحرر الإنسان من القيد الوثني، لينطلق إلى آفاق رحبة تتسم بالحق والخير والإيمان الخالص. إن الوجدانية كانت جوهر هذا النور.. النور الذي سرعان ما ملأ أركان القلوب وجنات المعمورة.

ومنذ أن جاءت البشارة بميلاد رسول الله (ﷺ) حتى تغير كل شيء أو هو في سبيله إلى التغير. شاعت الفرحة في بيت عبدالمطلب، بل عمت الفرحة في البرية كلها.. فهذا الوليد الوضوء قد اصطنعه الله لنفسه، واصطفاه لأمر جلل، وكفل له ما يكفله لأنبيائه ورسله.

ولاحت الإشارات تبشر بالخير الذي جاء في ركابه.. فرد الله على أبرهة كيده وحمى بيته، ورفع من شأن القوم من قريش..

جاء الميلاد في عام لا تساه الذاكرة العربية - عام الفيل - فأضحى إيذاناً باندحار كل طاغوت، وزوال كل جبروت. جئت أيها الرسول الكريم نوراً، قذف به الله في أصلاب الأنبياء والصالحين كما قال ابن عباس عن النبي الكريم (ﷺ):

«لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من أبوين لم يلتقيا على سفاح قط».

فرح الجد عبدالمطلب وشكر الله، وذبح الذبائح وأولم الولائم، وأطعم الناس. واطمأنت الأم الكريمة آمنة بنت وهب، واطمأنت نفسها بعدما رأت فى حمله وولادته آيات التكريم وبشارات الزمن الآتى.. ولم يغب عنها قول أم عثمان بن أبى العاص: «كنت مع آمنة - رضى الله عنها - أوان السحر من ليلة الاثنين... وما كاد نور الفجر يطلع حتى كانت آمنة قد وضعت وليدها الكريم».. فما من شئ أنظر إليه من البيت إلا نور.. وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو منى حتى لأقول لتَقَعَنَّ عَلَى...».. إنه البيت الذى أنار كل شئ فيه احتفاء بمولد المصطفى الكريم (ﷺ).

وُلِدَتْ يا رسولَ الله يتيماً لم تَسْتَشْعِرْ عاطفة الأبوة، ففاضت القلوب حولك بحبك. وأغدقت عليك الأم حناناً، وأنسيتها فراق الزوج.. ولكن اليتم اكتمل بغياب الأم.. فازداد الحزن واكتمل.

ولكنك يا رسول الله ربيب الإحسان الإلهى، فما ودعك ربك، ولا قلاك، وإنما اصطفاك، وشملك برعايته.. ولا يزال قول الأم يتردد صداه فى بيداء بعيدة عن الأهل والوطن.. والصغير محمد يعتصره الحزن.. تقول رضى الله عنها: «كل حي يموت، وكل جديد يبلى، وكل كثير يفنى.. وأنا ميتة، وقد تركت خيراً، وولدت طهراً...».. اجتباك الله، وعلمك ما لم تكن تعلم.. وكان فضل الله عليك عظيماً.

حفظك صغيراً حتى وأنت تشارك الأقران بعضاً مما يفعلون.. لم يجذبك ما ينجذب إليه الصغار، وشببت - كما يقول ابن سعد فى الطبقات - محفوظاً من أمور الجاهلية ومعاييها.. فكنت أفضل قومك مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى..

ولقد تجلت الشمائل الخلقية التى تنبئ عن الاصطفاء.. فأنت الصادق الأمين العفيف.. ارتضاك القوم أميناً لودائعهم، وحكماً لنزاعاتهم.. لقد وأدت يا رسول الله الفتنة حين بسطت رداءك ووضعت الحجر فى وسطه وقلت: «ليأخذ كل رجل فيكم بزواية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً».

وتحملت المكائد صابراً، واستعذبت الألم فى سبيل الله، والتزمت بالأمر الإلهى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...»..

... وتحول الرسول الداعية إلى قائد يتقدم الصفوف، يتقى به أصحابه غمرات الغزوات وأهوال الحروب.. حتى انتشر الإسلام وتكونت الدولة.. تلك عظمة ليست من جنس العظمت التى يخشى عليها من النسيان، عظمة لا نتذكرها فى مناسبة، وإنما هى ماثلة أمامنا صباح مساء.. نتذكرها يوماً بعد يوم.. وساعة بعد أخرى.. إنها عظمة خالدة بخلود آثارها.. عظمة تسرى فى النفوس كما تسرى العصارة الحية فى النبات الأخضر..

.. وها أنت أنىها الشهر الكريم تعود بذكراك العطرة.. فتتيح للمسلمين أن يتجددوا، ويتواصلوا، وينعشوا أفئدتهم، وينيروا عقولهم، ويحيوا ضمائرهم، ويرسموا الخطى للاقتداء.. برسول الله (ﷺ) لعلهم يُعيدون للإسلام مجده التليد..

اصطفاء المكان والإنسان

● ليس جديداً أن يقال إن الأزمنة والأمكنة كالإنسان، تسعد وتشقى... وإذا كانت سعادة الإنسان تتحقق بالشعور بالحرية والكرامة وصفاء الفطرة البشرية والقضاء على صور الفساد، كما تتحقق بتحقيق الإيمان فى صورهِ النقية الخالصة، وإشاعة الفضيلة، ومكارم الأخلاق، والتأكيد على القيام بالواجب والتمسك بالحق... فإن سعادة الزمن ترجع إلى ما تقدمه حركته من خير وصلاح، كما أن سعادة المكان تعود إلى ما ينبته من غذاء طيب يساعد على مواصلة الحياة وسريان شريانها الخصب فى دماء البشر.. وقد يكون المكان قفراً فيصطفيه الله، فتزكو التربة الميتة، وينبت الغرس وتتفجر المياه ينابيع.. ويكثر الثمر، ويفيض الخير.

● ولقد سجل القرآن الكريم الاصطفاء، والانتقاء.. فاصطفى الله سبحانه وتعالى من البشر رسله.. قال تعالى فى سورة آل عمران: «إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين».. واصطفى الله جل وعلا من الأزمنة أذكاه وأطهرها وأقدسها بالنسبة لخلقه.. فليلة القدر مصطفاة فى الزمان، لأنها الليلة التى حدث فيها التقاء السماء بالأرض، حيث نزل جبريل بالوحي على رسولنا الكريم (ﷺ) الإنسان المصطفى لتلقى الوحي والرسالة.. قال تعالى: «ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر».. وكان لابد من المكان لتجسد فيه حركة الزمان، وتتحقق فيه رسالة الإنسان

المصطفى، ومن ثم سجل القرآن الكريم الأماكن المصطفاة عند الله.. قال تعالى فى سورة الإسراء: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله...».. فالمكان مصطفى، والإنسان المصطفى الذى أسرى به ليلاً هو خير البشر كلهم.. رسول الله (ﷺ).

● ومكة هى أعظم الأمكنة على وجه البسيطة، وهى التى وقع عليها اصطفاء الله لتكون البقعة الطاهرة الزكية وسط عالم محتشد بالفساد، ولتصبح قبلة المؤمنين والموحدين بعد أن تعددت الاتجاهات وتباعدت.. ولتؤكد على محور العبادة الكونية.. والمكانى.. كما لو كانت وسط وعمق هذا الكون كله.. ولقد وقع عليها الاصطفاء من قديم الزمان منذ دعا إبراهيم الخليل ربه وقد ترك فيها ولده إسماعيل أن يجعلها - أى مكة - بلداً آمناً مطمئناً، تعلق فيه كلمة الله، وتتحقق فيه الوجدانية الخالصة لله.. يقول تعالى فى سورة إبراهيم: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلداً آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام».

● ومكة هذه كانت أول مكان سَعِدَ بنور الدعوة، وحفلت ساحاتها وجبالها وصخورها ووديانها وشعابها وكل شق فيها بالصراع الهائل الذى اشتجر بين الحق والباطل، والنور والظلام، والهداية والضلال، والوجدانية والشرك.. حتى إذا اهتزت جوانبها كلها حينما دخلها رسول الله (ﷺ) إيماناً بالفتح، وانتشار الإسلام.. أصبحت مركز الدعوة، ومناطق القلوب، وسجل القرآن الكريم أماكن المشاعر، فكان فى هذا الاصطفاء أعظم تخليد وأروع تسجيل.

● وارتبطت مكة - المكان والبيت والمشاعر - بالدعوة، وبالرسول المصطفى (ﷺ) وبمبادئ الإسلام وشعائره، فارتبطت بها قلوب المؤمنين.. ففيها البيت الكريم.. الكعبة المشرفة.. وهى اتجاههم وقيلتهم فى الصلاة.. قال تعالى: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...».. وهى المكان الذى تتجسد فيه شعيرة الحج، عياناً، وحساً، وتواجداً جسيماً وروحياً.. قال تعالى: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً...».. ولمكانة مكة ومنزلتها العالية، ودرجتها السامية، ولأثرها الروحى العظيم فى أفئدة الناس وقلوبهم وردت فى القرآن الكريم بعدة صفات وأسماء.. ولقد ذكر القرآن الكريم هذا المكان الطاهر بأشهر أسمائه وهو مكة: «وهو الذى

كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة...» كما ذكرها أيضاً باسم «بكة» وذلك فى مجال إرساء إبراهيم لقواعد البيت، حيث الطهر والصفاء والطواف.. والركوع والسجود والصلاة: «إن أول بيت وُضع للناس للذى ببكة مباركاً وهُدى للعالمين»..

ووردت مكة فى القرآن الكريم بصفاتها، كما جاء فى وصف القرآن لها بصفة «أم القرى»: «.. لتذر أم القرى ومن حولها...»..

كما ذكرها القرآن بصفة «البلد الأمين» إحياء بما ترمز به إلى الأمان والاطمئنان واستقرار النفوس والبشر، ومن ثم جاء القسم بها ضمن ما أقسم به الله سبحانه دليلاً على النعمة والخير، وتوجيهاً للأنظار إلى خيرها وفضلها.. قال تعالى: «والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين...»..

ولقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث فيها - أى فىمن يعيش فيها من بشر - رسولا كريماً من سلالتهم العربية ليعلمهم ويهديهم إلى طريق الحق والصواب ويظهرهم مما يقعون فيه من أوزار الشرك. ولقد تحقق ذلك الدعاء الكريم ببعثة السراج المنير، واصطفاء الله لمحمد (ﷺ) للدعوة الإسلامية.. قال تعالى فى سورة البقرة: «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم»..

● ويرى ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى: «والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين...» أنها محال ثلاث بعث الله فى كل منها نبياً مرسلًا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار: فالأول محله التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى عليه السلام. والثانى طور سينين وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام، والثالث البلد الأمين الذى من دخله كان آمناً.. وهو مكة.. ذلك المكان المصطفى الذى أرسل الله فيه محمداً (ﷺ).

● فى هذا المكان المشرف ولد المصطفى (ﷺ) فى شهر ربيع الأول ساعة أن تنفس الصباح فى أرض مكة عن بدر إنسانى هو أتم البدرين نوراً وأعظمهما يُمنًا وبركة.

ولقد فطر الله رسوله منذ البدء على القناعة، والعدل، والأمانة والبعد عن الاستئثار بشئ، وطهارة السريرة، ونقاء القلب، وصفاء المشاعر ونبل الخلق.

ولا عجب أن يطلق عليه قومه صفة الأمين قبل أن يتلقى الرسالة ويتحمل أعباءها .

● ولقد تولى الله سبحانه محمداً برعايته، واصطفاه على غيره من البشر، وخلصه منذ صباه من شوائب الدنيا وفساد الهوى وزخرف الدنيا الفانية، كانت عين الله تحرسه وهو يرعى الغنم وينأى بنفسه عن مجالس اللهو، وكان معه يشد أزره ويهديه إلى الطريق الحق حين حضر مع أعمامه حرب الفجار، وأفاض عليه من العلم والحكمة وصفاء الضمير ونقاء العقيدة ما جعله قريباً في صلته بالله، فيفر من ظلام الجاهلية إلى الأنس بنور الإيمان الفطرى الذى يشع فى داخله، ويشعر به ويحس بلهيبه الذى يزكى النفس ويطهرها، وهو معه فى قلقه على قومه وهو يراهم فى غيهم يعمهون، وهو معه يلقى عليه بالكلم المعجز والآيات البينات، فتتفجر ينباع الحكمة والهداية.

فكان الميلاد إذن إيذاناً ببزوغ شمس النبوة على مكان كان يموج بالوثنية والضلال.

● ولقد أنعم الله على رسوله الكريم (ﷺ) بالنبوة والرسالة فختم به رسالاته وأكمل به دينه، وأتم به على العباد نعمته. ولقد واثقه الرسالة - وهو المصطفى - وهو المستحق لها .. لشمائله المطهرة فى نفسه، وفى أسرته وفى عشيرته وفى أسلوب سياسته وقيادته. فلقد برز فى كل مكان، وفى كل موقف .. إنساناً كاملاً. ومنذ تلقى الوحي وردد مع جبريل الأمين: «اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم» .. منذ تلك اللحظة أخذ رسول الله (ﷺ) يدعو قومه إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ونبد الشرك وهجر الضلال، وكان يدعوهم بالحسنى، وبالحكمة: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» .. وتحمل (ﷺ) مكائد قومه وصبر على أذاهم، وبذل وسعه فى سبيل الدعوة وإعلاء كلمة الله.

● وهو الذى ترك مكة، المكان المصطفى، المحبب إليه، مضطراً حين اجتمع قومه وتحاوروا وقرروا أن يحاصروا بيته، ويضربوه ضربة رجل واحد فيفترق دمه فى القبائل .. فلا يستطيع بنو عبدمناف أن يأخذوا بثأره، فيطلبون الدية، ومن ثم يستريحون منه ومن دعوته، وهو القائد الذى يتقدم الصفوف ويخوض الغمار، وتتجلى على يديه الغمرات، وهو الدرع لأصحابه فى هول

الحروب، وهو الحاكم العادل.. يقيم الوزن بالقسط، لا يفرق بين عرلى ولا عجمى إلا بالتقوى، ولا يميز بين الناس فى إقامة حد من حدود الله شرعه الله لحماية البشر وأمنهم وارتقائهم إلى مدارج الرقى الدينى والإنسانى: «والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»..

●● إنه (ﷺ) فى كل موقف مصطفى، ومُعصوم من الله. وتلك معجزة باقية ويسرى أثرها فى جوانب الأرض شرقاً وغرباً، تنبض لذكرها القلوب وتتحرك لها العقول وتشرح بها الصدور. إنها الرسالة الخالدة التى جاء بها المصطفى (ﷺ).. فهدى بها الإنسان إلى ما هو أقوم: فى العقيدة، وفى الخلق، وفى الحياة، وفى علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بغيره من البشر، وفى عمارة الدنيا وأمنها واستقرارها. وفى هذه الذكرى العطرة يجمل بالمسلمين أن يتخلقوا بأخلاق الرسول، وأن يتمثلوه فى مواقفه الكثيرة من مهده وصباه وشبابه ورجولته وقيادته وحكمته ونبوته وعدله ومكارم أخلاقه.. إنه الأسوة الحسنة للأمة الإسلامية على مدار الزمن وعلى امتداد المكان.

ولعلنا نتمثل بقوله تعالى: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر».. فتخلص نفوسنا وتصفو عقيدتنا ويعود للإسلام مجده وعزه وقوته..

.. وهكذا نرى أن الله اصطفى مكة وادخلها لرسوله المصطفى (ﷺ) لينطلق منها حاملاً راية التوحيد ورافعاً لواء الحق.. قال تعالى: «وربك يخلق ما يشاء ويختار»..

الإُسوة الحسنَة

أتى الخيرُ فى رحابه -صلى الله عليه وسلم- وانطلق نداء الإسلام يغمر الكون، ويهل على العرب فجر تترقرق أضواؤه على قلوب مستها أنوار الحق، وعلى نفوس هزتها لمسات الرحمة، وعلى مشاعر جامدة أرهقتها نساءم الفجر الجديد.. ولا تزال القلوب عطشى يتجدد ربيها كلما اشْرأبت الرقاب إلى سناه -صلى الله عليه وسلم- تغترف منه ما يحيى الضمير وينير العقول.

ولقد كانت شخصية الرسول الكريم متفردة، جمعت من الجلال والكمال ما أهلها للاصطفاء، وتحمل الرسالة. وكان -صلى الله عليه وسلم- النموذج الأمثل للخلق الكريم.. وهى صفة أساسية أكدها القرآن الكريم فى قوله تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم» ولم يكن عجيباً أن تصفه السيدة عائشة بقولها (كان خلقه القرآن) وهى تراه فى سلوكه اليومى الرحمة المهداة والقيم الفاضلة، والمثل العليا.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الرسول فجاء الحديث مرآة نرى فيها شخصه بشمائله وخصاله. وباله من شرف عظيم أن يصف رب العزة رسوله الكريم بالخلق العظيم.

فلقد جمع الفضائل من علم وحلم وحياء وعبادة وسخاء وصبر و تواضع وشفقة وحُسن عشرة. يصف أنس رضى الله عنه رسول الله فيقول: «كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وما مسستُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان

أَلَيْنَ مِنْ كَفَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَمَمْتَ مَسْكَ وَلَا عَطَرَكَ كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ).

وَإِذَا كَانَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ خَلْقِهِ الْعَظِيمِ مَعْرُوفَةً وَمَشْهُورَةً فَإِنْ وَقَعَ سِيرَتُهُ لِأَعْظَمِ شَهَادَةٍ عَلَى مَا يُرَوَّى. ذَلِكَ أَنَّ أَعْظَمَ مَا يُمْكِنُ أَنْ نَخْرُجَ بِهِ مِنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ الرِّبَانِيَّةِ أَنْ يَظَلَّ مُحَمَّدٌ ثَابِتًا رَاسِخًا مَطْمَئِنًّا.. لَا يَتَكَبَّرُ عَلَى الْعِبَادِ، وَلَا يَنْتَفَخُ، وَلَا يَتَعَاضَمُ. فَالرَّسَالَةُ مِنَ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ بِحَيْثُ لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَثْنَى عَلَيْهِ اللَّهُ. (.. وَمُحَمَّدٌ -وَحْدَهُ- هُوَ الَّذِي يَكْفِي هَذِهِ الرَّسَالَةَ الْكُونِيَّةَ الْعَالَمِيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ حَتَّى لَتَتَمَثَّلَ فِي شَخْصِهِ حَيَّةٌ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ فِي إِهَابِ إِنْسَانٍ).

وَيُلَخِّصُ الرَّسُولُ هَذِهِ الرَّسَالَةَ فِي تِلَاوْمٍ كَامِلٍ مَعَ مَا وَصَفَهُ بِهِ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

وَلَقَدْ أَوْجِبَ الْقُرْآنُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْإِعْتِقَادَ بِتَكَامُلِ النَّظَرَةِ وَتَوْحِيدِهَا. فَالْإِيمَانُ بِالرَّسْلِ صُنُو الْإِيمَانِ بِاللَّهِ. فَوَضَّحَتِ الْآيَةُ أَنَّ مَنْ يَفْرُقُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَكَافِرُونَ حَقًّا. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (النِّسَاءُ: ١٥٠-١٥١).

فَالْإِيمَانُ وَحْدَةً لَا تَتَجَزَّأُ وَمِنْ هُنَا تَصْبِحُ وَحْدَةُ الرِّسْلِ الَّذِيْنَ جَاءُوا بِالْإِيمَانِ أَمْرًا وَاجِبًا الْإِعْتِقَادَ بِهِ. وَيَفْرُضُ التَّصَوُّرَ الْإِسْلَامِيَّ عَلَى الْمُسْلِمِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ دُونَ تَفْرِيقَةٍ بَيْنَ أَحَدٍ. وَمِنْ ثَمَّ فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَسَاسُ اللَّائِقُ (بِتَّصَوُّرِ الْمُؤْمِنِ لِإِلَهِهِ -سَبْحَانَهُ- كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ اللَّائِقُ بِوُجُودِ مَنْظَمٍ غَيْرِ مَتْرُوكٍ لِلتَّعَدُّدِ وَالتَّضَادِّمِ) (الظَّلَالُ ج ١، ص ٧٩٨).

كَمَا أَوْجَبَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ طَاعَةَ الرَّسُولِ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ وَبَيَّنَّتْ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ.. «مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ». فَالطَّاعَةُ مَبْدَأُ إِسْلَامِيٍّ يَنْظُمُ الْعِلَاقَةَ وَوَسَائِلَهَا بَيْنَ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَطِيعُوا اللَّهَ وَأَنْ يَطِيعُوا الرَّسُولَ. فَطَاعَتُهُ إِذَنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانُ مَرْتَبَتُهُ بِهَذِهِ الطَّاعَةِ وَتَتَفِيدُ الْأَمْرَ بِهَا.. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴿٥٩﴾ (النساء: ٥٩). فطاعة الرسول أصل تشريعى ثابت ومنهج فى التنظيم. وتدرّجا مع السّياق تصبح صحة الإيمان بالله مشروطة بقبول حكم الرسول. فالرضا بحكم الرسول شرط فى صحة الإيمان بالله واكتماله. قال تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء: ٦٥).

فالتسليم بالحكم دليل على الطاعة وتنفيذ القضاء وإشارة على الطمأنينة والافتتاع وعميق الإيمان.

ذلك كله يتأتى من أن سنة رسول الله إنما هى بيان وتفصيل لكتاب الله، وهى الأساس الثانى فى مصادر التشريع الإسلامى. قال تعالى: «... ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم...»

الرحمة المهداة

راحت الحجارة تتساقط من السماء، ترمى بها الطير الأبايل فتخترق ما يقف في طريقها. وتبدلت المصائر، واندحر أبرهة وجيشه، واستقبلت الكعبة الطائفين والعاكفين والركع السجود. في هذا الجو المشحون كان عبدالله بن عبدالمطلب قلقاً على زوجته آمنة بنت وهب التي كانت تحتضن جنينها محمداً. لكنه ودّع الحياة قبل أن تكتحل عيناه برؤية ولده.. وجاء مولده - صلى الله عليه وسلم- وسط هذا الجو الحزين فخفف عن الأم غياب الزوج. وفرحت به وشاركتها الطبيعة فرحتها حين تفتحت السماء عن ضوء مبهر يحمل البشارة.. وأقبلت عليه حليلة السعدية وهي تحس بشعور موصول يشدها إليه.. وفاض الخير على يديه..

واصطفى الله هذا الوليد لرسالته..

لقد صنع الله محمداً ورياه واصطفاه، ووصفه القرآن بصفات وشمائل أخلاقية عظيمة. ولعل صفة الرحمة من أعظم الصفات التي تتبدى واضحة كعطاء نبوي وافر الزاد عظيم الفيض، فهو المبعوث رحمة للعالمين. قال تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (الأنبياء: ١٠٧). وقال رسول الله عن نفسه صادقاً كل الصدق: «إنما أنا رحمة مهداة». ولعل تعبير «رحمة للعالمين» يؤكد على أن الله رحم خلقه حين أشرق نور الإسلام وعم ضياؤه وبشر بالنجاة من الشقاء والكفر والجحود والجهالة وبهداية الخلق إلى الإيمان والخير وتحقيق السعادة.

ولقد وسع الرسول بحكمته غضب وعناد الكفرة من قومه واحتوى الأخطاء والخطايا وتسامح وعفا، ورحم، (وهكذا صاحب النفس الكبيرة، والقلب الرحيم يعفو ويصفو ويسامح وبالعفو يرتد الجانح ويلين الجامح).

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك من محارم الله تعالى» (رواه مسلم).

.. لقد كان صلى الله عليه وسلم يداوى النفوس المريضة بالرحمة، ويعالج القلوب الجامدة بالألفة والمحبة والشفقة، ولقد طالت رحمته حتى وصلت الحيوان، فالحيوان مخلوق أعجم جدير بالرحمة، لأنه لا يشكو ولا يتوجع كبنى البشر. روى عن عبدالله بن جعفر أن رسول الله دخل بستاناً لرجل من الأنصار فإذا بجمل يحنّ وتذرف عيناه فمسح رسول الله عليه فسكت، فقال لصاحب الجمل: «ألا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه».

وهذا السلوك النبوى الكريم إنما هو نموذج يجب أن يقتدى به، ذلك أنه حين تسود الرحمة بين البشر تتحقق السعادة، وتطمئن القلوب ويتغشاهما سكونة إيمانية تلف الجميع بوشاح من المحبة والود والتألف، والتراحم، ومن ثم فإن الأسوة الحسنة نبراس يهتدى به ويسير على ضوئه كل مسلم حريص على دينه وقيمه وفضائله.

وإذا تراحم الناس فإن البشرية ترفرف عليها نسائم السعادة، ويشعر البشر أجمعون بالهناء والعزة، ليس بين المسلمين فقط بل بين الآخرين الذين يميلون بفضل هذه القيم إلى نوع من الألفة والصدقة ونبذ العداوة. ويتحول المؤمنون أنفسهم إلى جسد واحد متماسك قوى... مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد...».

ولم يكن غريباً أن تثمر هذه القدوة المثلى أنماطاً من البشر يتسمون بالبر والرحمة لقد استتبت الرسول: «في جماعتهم بذور المودة والمروءة والرحمة وعلمهم أدب النصح، ونزاهة الكلمة، ونقاء السريرة».

حول الإسراء والمعراج

جاء ذكر الإسراء فى قوله تعالى من سورة الإسراء «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» (آية: ١).

وسورة الإسراء مكية تهتم بشئون العقيدة ولكن العنصر البارز فيها هو الحديث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وعن تأييد الله له من معجزات دالة على صدقه... فثمة معجزة خرقت الناموس وطوت الزمان والمكان، وكانت فى جوهرها تكريماً إلهياً للرسول الكريم. ولقد تجلت عظمة الله وقدرته فأسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى جزء من الليل .. حيث الهدوء والسكون، ووقت الهمس والنجوى، ولحظة التجلى الأسمى.

.. ولقد جاءت الألفاظ الكريمة حاملة هذا المعنى العظيم.. فكلمة «سبحان» تدل على التنزيه والتقديس.. إنه العلى الشأن المنزه عن كل عيب ونقيصة. كما تفيد أن الفعل صادر من الله، ومن ثم وجب التصديق به والإيمان بمان جاء فى شأنه.. وكأنها توحى -فى سياق الأحداث- بما سيكون عليه أمر الكفرة من نكران وتكذيب.. ولقد جاءت لفظة (ليلاً) منكراً لبيان تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به صلى الله عليه وسلم فى جزء من الليل.. وأن هذا الجزء القليل مناط الإعجاز ومحوره.. فما قطع من مسافات لا يدركها العقل،

وتعجز عن قياسها علومه، هي إحدى نتائج الإسراء فى الزمن الليلى القليل.. وهى من ناحية إضافة للإعجاز، وإشارة لما سيكون عليه موقف القوم من تكذيب، حين قاسوا بمشاهدات الواقع ما لا يخضع للواقع ولا ينحصر فيه .

.. ولما كان الحدث ليلاً.. اختلفت الأخبار حول حالة الإسراء، أكانت فى النوم أو فى اليقظة؛ فإن كانت فى النوم فهى رؤيا منامية، وإن كانت فى اليقظة فهى الإسراء بالجسد .

والجمهور يرى أن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسد النبى صلى الله عليه وسلم وروحه، وليس فى العقل ما يحيله إلى تأويل.. لأن جوهر الإعجاز هو بالجسد.. ورأى البعض أن الإسراء كان فى اليقظة والمعراج كان فى المنام.. ولذلك لما أخبر رسول الله قريشاً بأمره كذبوه فى الإسراء.. لمعرفتهم بيت المقدس ولغرابة أن يقطع محمد المسافة التى يقطعونها فى أربعين يوماً فى جزء من الليل.. فى حين لم يتعرضوا للمعراج.. لعدم معرفتهم به.. ولكونه أمراً سماوياً يضاف إلى ما يقال لهم من نزول الوحي من السماء على محمد.. ويصبح الخوض فيه لا جدوى منه بالنسبة لهم.. فتمسكوا بما يعرفون وألحوا فى معرفته والتأكد منه.. حتى وصف لهم بيت المقدس وصفاً دقيقاً تطابق مع معرفتهم.

وهذا الفصل بين الفعلين الإلهيين فصل متعسف، يدل على افتقار الإيمان، والجحود الواضح، والقصور العقلى.. فما جرى فى الفعلين واحد، والمعجزة التى وراءه واحدة، وقبضة الله هى نفسها التى قبضت الزمان وطوت المكان.

ولذلك جاءت لفظة (عبده) لتعكس امتزاج الفعلين الإلهيين مزجاً مضميناً لا انفصال فيه.. فالعبد هنا تعنى كمال الخلق وكمال العبودية ومن ثم توحى دلالة الإضافة إلى الذات العلية بأنه أرفع الخلق منزلة وأعظمهم عند الله جاهاً.. فالإضافة أضافت المعنى وحددت المقصود.. وبيئت أن «عبده» هو هذا الإنسان الكامل المميز والمصطفى والمصنوع على عينه.. فإن جزأنا العبد إلى جسد وروح، افتقد التجزئ الكمال، ومال إلى النقصان. فالجسد جرم جامد ساكن.. إن فارقتة الروح كان جثة هامدة، والروح كيان أثيرى سابح هو الجوهر والحقيقة، ولكنها إن لم تتلبس بالجسد ستظل هائمة سابحة شفيفة.. وكل منهما على انفراد.. خالٍ من مناط التكليف وبعيد عن الدعوة، فلا

الجماد يكلف، ولا الشيء الأثيرى يكلف.. ومن ثم يجب الامتزاج، حتى يتشكل الجسد والروح عبداً كامل العبودية لله.. هو صاحب الدعوة وهو المدعو بكيانه كله إلى ضيافة الرحمن.. وهو لبّ المعجزة وشرفها..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب دائماً أن يؤكد صفة العبودية هذه التي رفعته مكانة عالية. «إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبدالله ورسوله» وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي، إنما أنا عبدالله». وذكر الله سبحانه تلك الصفة المعنوية والمادية جاء في مقام معجز، مقام الدعوة والتحدى. والتحدى لا يكون بالمنام وإنما بالوجود العيني الذي يؤكد جسدية الرسول في إسرائه ومعرجه.. فضلاً عما ورد من المشاهدات الحسية التي رآها في البادية.

وفي فتح الباري يقول المصنّف: «الإسراء كان في اليقظة والمعراج في تلك الليلة، وتعين أن يكون في اليقظة أيضاً. وإذا كان في اليقظة فإضافة الرؤيا إلى العين للإحتراز عن رؤيا القلب، وقد أثبت الله رؤيا القلب في القرآن (ما كذب الفؤاد ما رأى) ورؤيا العين في قوله: (ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى)».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: «هى رؤيا عين رآها النبى صلى الله عليه وسلم لا رؤيا منام».



ولقد كان لقصة الإسراء والمعراج، بما تتمضنه من مشاهدات فائقة التصور.. أثرها الكبير فى الأدب العربى والغربى على السواء.. ومما لاشك فيه أن روايات أضافت وزادت فى حديث المعراج.. مما جعل الخيال فيها كثيراً، والمرئيات فيها على جانب كبير من الغرابة. وإذا قسناها بما سبق درسه.. فإننا نجد ما يثار حولها من خلاف فى الرواية.. ولكنها كمحصلة لغوية أصبحت نصاً أدبياً له قوامه الإبداعى الخاص، وهو من هذه الناحية، يصبح إشادة مهمة إلى بداية فن القصة فى الأدب العربى.. ويضع بصمته على بدايات هذا الفن.

وإذا ما استقرأنا ما كتبه أبوالعلاء المعرى فى مؤلفه (رسالة الغفران)، لنلمح التأثير الواضح بحديث الإسراء والمعراج. فرسالة الغفران ما هى إلا رحلة

خيالية إلى الجنة والنار، ورصد المرنثيات والمشاهدات -المتخيلة- فى نسق تعبيرى يقترب من نص الحديث. والمعراج بما فيه من تنوع وتنقل، وتعدد الأمكنة والمشاهدات، كان وراء «رسالة الغفران».. فالحديث عن رحلة غيبية، وتسجيل مقابلات المؤلف لكثير من الشخصيات، ورصد مشاهدات عن الجنة والنار، ونوعيات العذاب والثواب التى ينعم بها المؤمنون أو يتعذب بها الكافرون، فضلاً عن الهيئة التى وجد عليها بعض الشخصيات والأقوام.. ليؤكد على أن أبا العلاء.. قدوقع متأثراً بما ورد فى المعراج.. كنص أدبى.. وهى فى المجمال عناصر مشتركة..

وثمة تأثير للمعراج فى الأدب الصوفى حيث الرحلات الخيالية التى تخيلها بعض المتصوفة أو ساروا فى منهجهم على درب المعراج. ولقد أثرت قصة المعراج فى الأدب الأوروبى تأثيراً واضحاً..

● فالمعراج فى حقيقته معجزة أجراها الله سبحانه تأييداً للرسول وإيناساً له، ولقد حدثت فى السماء حيث انفتحت مغاليق الكون حتى وصل الرسول إلى سدرة المنتهى والحضرة الإلهية فتلقى من ربه التعاليم. وهى من هذه الناحية تختلف عن المعجزات الأخرى التى أجراها الله سبحانه لأنبيائه، حيث حدثت جميعاً على الأرض وأمام مآل من الناس أو اختص بها النبى منفرداً.. كموسى حين كلم ربه.. ولكن الحدث نفسه وقع على الأرض.. ومن ثم تصبح تلك المعجزات حسية مرتبطة بحواس الإنسان ورؤيته.. أما الإسراء والمعراج فهو رحلة وجدانية خالصة، حيث تداعت كل الحدود أمام الرسول واجتمع الكون كله فى وجدانه وروحه فوعاه وتمثله منذ الأزل إلى الأبد.

ولقد ورد فيما روى عن ابن عباس أن جبريل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هيئته الملائكية «له جناحان أخضران، قد سدّ بهما المشرق والمغرب» وركب الرسول البراق وهى -كما روى عنه أيضاً- «دابة لاتشبه الدواب، عُرفها من اللؤلؤ الرطب، منسوج بقضبان من الياقوت يلمع فى النور، وعيناها مثل كوكب درى يوقد لها شعاع كشعاع الشمس».

وفى السماء الخامسة ينظر رسول الله إلى تخوم الأرض السابعة السفلى ويُفتح له الغطاء فيرى جهنم مظلمة ممزوجة بغضب الله. وشاهد الرسول

صوراً للعذاب.. متعددة ومتنوعة. كما رأى الرسول نماذج لما أعده الله من نعيم لعباده المتقين.

ولقد وصف الرسول الجنة -فى رواية عبدالله بن عباس- فقال: «أرضها بيضاء مثل الفضة، وحصبائها من اللؤلؤ والمرجان وترابها المسك، ونباتها الزعفران». وهذا الوصف الحسى الممزوج ببلاغة لفظية جميلة، وروعة فى الأداء والتصور، هو المثير الفعلى إلى إمكانية تأثر الأدب الغربى بالمعراج.

فالنص الأدبى للمعراج -على رواية ابن عباس- نص فائق الروعة، جمالا، وأداءً، وتعبيراً.. وهذا الجمال التعبيرى والخيال التصويرى.. كان مدعاة لتأثر «دانتي» فى مؤلفه العظيم (الكوميديا الإلهية).

ولقد أثبت الباحثون، أن «دانتي أليجيرى» مؤلف الكوميديا الإلهية قد تأثر فى رائعته الأدبية بالإسراء والمعراج.. حين اطلع على مخطوطة مترجمة من الإسراء والمعراج.. وحيث مرت ترجمتها بمراحل ثلاث.. هى الاسبانية، ثم الفرنسية وأخيراً اللاتينية.. ولقد عكف المستشرق (بلاسيوس) على الكوميديا بحثاً ودراسة، وأعطى قضية التأثير اهتماماً كبيراً حتى استطاع من خلال مقارنة متأنية أن يجد مشابه كثيرة بينها وبين ما جاء فى حديث الإسراء والمعراج.. بل وبما جاء فى القرآن عن الجنة والنار.

وتتقسم الكوميديا إلى ثلاثة أجزاء: الجحيم، والمطهر، والفردوس. فالجحيم هو مملكة الظلمات «فى باطن الأرض، فى أبعد مكان من الله، حيث تسقط الأرواح كالأوراق الجافة فارقت غصونها..»

والمطهر جبل فى الأرض مرتفع، أهله من التائبين. وكلما نجت روح من أرواح المطهر (انطلقت إلى عالم الخلد فيهتز الجبل كله ويصيح الجميع يمجدون الله)

والفردوس مملكة سماوية مسكونة بالمؤمنين الذين «يتذوقون من النعيم الخالد على قدر ما يطيقون».

وثمة مشابه كثيرة بين المعراج والكوميديا الإلهية.

فدانتي يصف الجحيم بأنها مملوءة بالنار قد استقر فى قاعها الشيطان، وتمتد فى مساحات شاسعة تحت الأرض. وفى هذا الوصف ظلال واضحة

مما ورد فى المعراج عن الجحيم. فقد جاء فى المعراج عن الجحيم أنها «تخوم الأرض السابعة السفلى».

ولقد أفاد دانتى من المشاهدات الكثيرة التى وردت بالمعراج عن الذين لهم رعوس من البشر، وأجسام من الحيوان، وأجنحة من الطيور.

كما أن الصورة الرائعة التى صوّر بها دانتى النسر الملائكى ذا الأرواح الكثيرة والأجنحة المتعددة، والوجوه المختلفة.. والنور المتألىء الباهر، والصوت النغمى الجميل الذى يدعو به الخلائق إلى الاستقامة والأخلاق.. هى نفسها الصورة التى وردت بالمعراج عن الطائر العملاق.. إنه طائر ذو أجنحة كثيرة، ملائكى الصورة، له أرواح وأجنحة كثيرة، يضرب بجناحيه حين يغنى يمجّد الله ويدعو الخلق للصلاة.

وفى الكوميديا الإلهية تتم رؤية الله فيما وراء السموات، حيث عرش الله تحيط به تسعة صفوف دائرية من الملائكة لا ينقطعون عن ذكر الله فى ألوان وأنوار تغشى الأبصار.

وفى المعراج فى رواية عن أنس جاء فيها (وفتح باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت.. فأوحى إلىّ ما شاء أن يوحى..).

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وصل إلى سدره المنتهى أبصر (سبعين ألف صف من الملائكة قياماً على أرجلهم.. وإذا بالنداء من قبل الله تعالى: «ارفعوا الحجب.. فرأيت مائة ألف صف من الملائكة قياماً لا يركعون» ومثلهم فى الرجوع والسجود (ولقد أخذتلى الرهبة مما رأيت من الجلال والكمال والبهاء والعظمة.. إلخ)..

و«دانتى» وهو يقوم برحلته الخيالية هذه ويصف صفوف الملائكة والنور المنبعث منها فى الحضرة الإلهية.. يذكر أنه لم يستطع أن يواجه هذا النور الذى يغشى الأبصار، بل إنه يعترف بأنه عاجز عن إدراك كنه النور، ثم يقرر أنه يشعر فى قلبه بنوع من النشوة والراحة الروحية تغزو قلبه وجوانب نفسه البشرية.. فى هذا الحضور النورانى.

وما قاله دانتى يقترب مما جاء فى المعراج فى رواية ابن عباس (فدنوت من

ربى حتى صرت منه كقالب قوسين أو أدنى.. فوضع سبحانه يده على كتفى- ولم تكن بدا محسوسة كيد المخلوقين، بل يد قدرة وإرادة، فوجدت بردها على كبدي.. فذهب كل ما كنت أجده.. وملئت فرحاً وسروراً فأخذنى عند ذلك الثبات والسكون..»

.. وبالرغم من أوجه الشبه الكثيرة بين المعراج والكوميديا .. إلا أن دانتي لم يكن موضوعياً فى نظريته إلى محمد صاحب المعراج الذى تأثر به، وإلى الإسلام خاتم الأديان، حيث جارى ما كان ذائعاً فى العصور الوسطى عن محمد وعن الرسالة.. فعكست نظريته فى الكوميديا، ما كان موجوداً من هجوم شديد ومعارضة حادة للإسلام ورسوله.. وتشويه العقيدة الإسلامية وصاحبها تشويها يُرضى العامة من الناس فيزيدونهم عداً، ويملاًنهم حقداً وضغينة.

فالكوميديا مرآة عاكسة لحالة العداء المستحكم ضد الإسلام.. يقول مكسيم رودنسون فى كتابه (تراث الإسلام) (وكان رجل الشارع يرغب فى صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام عن طريق تمثيله بشكله الفج.. على أن تكون مرسومة بشكل يرضى الذوق الأدبى الميال إلى كل ما هو غريب). ومن ثم اختلطت الروايات التى كان من هدفها إثارة اهتمام (القارئ بالعرض المشوه للعقيدة، ووصلت الملاحم إلى أعلى ذرا الابتكارات الخيالية).

والكوميديا الإلهية أحد آثار هذا التشويه للعقيدة الإسلامية، مصوغة فى أسلوب أدبى أخاذ، وفى تصور خيالى نادر المثال، لتؤثر فى الذوق، وتساهم فى تواصل العداء للإسلام.

ودانتي- جرياً وراء العداء للإسلام وصاحبه، وانطلاقاً من النظرة العدائية الضيقة للإسلام إبان العصور الوسطى، وسقوطاً فى تيار إشباع أهواء القارئ لكل ما يسىء إلى الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم- دانتي الذى كان دافعه ذلك كله، قد أنزل الرسول مكانة دنيا.. فى حين ارتفعت بعض الشخصيات الإسلامية إلى مكانة أعلى..

وتصنيف دانتي للشخصيات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لم يكن من بنات أفكاره كما ترى الدكتورة رشا الصباح فى مجلة عالم الفكر ١٩٨٠. فتصنيفه منقول عما كان شائعاً فى عصره من معتقدات، ومتوارث عن

الصورة التي كانت لأسلافه ومعاصريه عن الشخصيات الإسلامية. فلقد وضع شخصيات ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبي في مكانة عالية من حافة الجحيم، اعترافاً منه بحكمتهم وفلسفتهم وفروسياتهم.

فدانتى يثبت عدم موضوعته حين تحامل على الإسلام وعلى الرسول.. فهو كان يتقرب إلى الكنيسة ذات الثقل الهائل في ذلك الزمان.. وهو في تقربه ذم الإسلام وأساء إليه، كما أنه قد اتهم يوماً بأنه يسىء إلى الكنيسة ورجالها، فكأنه حين أراد أن يعتذر، لم يجد عذراً لدى الكنيسة إلا عدائها للإسلام فخاض فيه، وأصبح الهجوم قريى للكنيسة.. ليتسق ما يقول مع عدااء الكنيسة للإسلام.

ويرى رودنسون في كتاب (تراث الإسلام) أنه بمرور الزمن وبتفاعل العقول الواعية مع واقع الحضارة الإسلامية وفكرها، حدث تغير واضح في نظرة الغرب إلى الإسلام وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.. وبدأوا ينظرون إلى الأمر نظرة أكثر موضوعية وعقلانية، وإن ظلت محاربة الإسلام أمراً مسلماً به. ولكن المعرفة العميقة به كان من شأنها أن تؤدي إلى المزيد من الموضوعية، بل أن تؤدي في المدى البعيد إلى المزيد من النسبية..

وأخذت تتشكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامي بوصفه مهذاً لفلاسفة عظام. وكانت هذه الصورة مضادة تماماً للصورة السابقة، صورة التناحر السياسى فى العصور الوسطى.. وهى الصورة الكريهة التى خلقتها الخرافات ضد الإسلام، وإنساق وراءها أديب إيطاليا الكبير (دانتي أليجيري).

خطبة الوداع

تضمنت خطبة الوداع عدداً من المبادئ الإسلامية الأساسية التي تكفل للمجتمع المسلم الحياة الكريمة الآمنة. وتساهم في أمان العالم واستقراره، فعلى جبل عرفات وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء يخطب في الحجاج الذي جاء من كل صوب، ويعلن وصاياها الخالدة للأمة لتحقيق سعادتها وأمنها ورخائها وتقدمها، وهي خطبة جامعة تناولت موضوعات مهمة وأساسية..

كانت حرمة الدماء والعرض والمال وصية أساسية من وصايا الرسول.. إذ هي من أهم مقومات المجتمع المسلم الذي تصان فيه الدماء والأموال والأعراض فتشيع فيه روح الاطمئنان ويملاً الأمن جوانب النفوس، فتتطلق إلى العمل والسعى في أمان كامل.

قال صلى الله عليه وسلم: «.. إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا...».

وهذا مبدأ عظيم يتعلق بالأمن والاستقرار واستتباب الحياة والعمل على ازدهارها ونموها وانطلاقها..

لقد صان الإسلام النفس وحرّم قتلها إلا بالحق، وفرض على المعتدى العقوبة الرادعة.. وحدد الحدود التي تقابل الفعل المجرم، من قتل، وسرقة، واغتصاب وإشاعة للفساد.. إن القصاص في مثل هذه الجرائم وغيرها، صيانة للمجتمع من العدوان، وردع لهؤلاء الذين لا يتورعون عن مقارفة الآثام،

ولا يراعون حرمة لحدود الله.. ومن ثم تكامل المعنى فى قوله تعالى: «ولكم فى القصاص حياة».

وهذا القصاص وسيلة للردع ووصون للحياة، واستقرار للبشر.. ولعل تحقيق هذا المبدأ أن يواجه الانفلات الملموس فى السلوكيات.. ذلك أن حرمة دم المسلم أمر أساسى لا مرأى فيه إلا فى أمور ثلاثة، كما جاء فى الحديث: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك دينه المفاقر للجماعة».

ولقد أشارت الخطبة إلى ضرورة المحافظة على حقوق الآخرين وممتلكاتهم وما يحوزون من أشياء خاصة.. وأباح للمسلم حق الدفاع ضد من يعتدى على ماله، يريد سلبه واغتصابه.

إن تحريم مال المسلم قاعدة أساسية، لكن ذلك لا يعنى أن يستأثر الغنى بماله دون الفقير، فلقد حدد الإسلام منافذ صرف المال كالزكاة والصدقة والهبة والعطاء.. فضلاً على مبادرة المسلم بعطاء ما يريد للغير عن طيب خاطر، دون فرض، أو خوف، أو مكيدة يجبر عليها.. (لا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس..).

ولا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا حافظ على عرضه وعرض إخوانه المسلمين، ولأهمية هذا الجانب قرن الرسول حرمة العرض بحرمة الدم والمال.. إشارة إلى أهمية هذا المبدأ الخلقى الكريم.. إذ إن صيانة العرض مدعاة لإشاعة الخلق الكريم والتمسك بأهداب الفضيلة، والتحلّى بالخلق النبيل وهى صفات مهمة تؤدى إلى تماسك المجتمع وتقوية العلاقات بين البشر.. وسيادة صفة المحبة والألفة بين الناس جميعاً.. ومن ثم فلقد حدد الإسلام العقوبات التى تصون هذا المبدأ وتواجه التردى الخلقى كالزنى والتباذ بالألقاب وقذف المحصنات، والغيبة والنميمة.. فالجلد عقوبة الزنى، والقذف، كما أن التباذ نوع من الفسوق الذى يجلب على صاحبه العار والظلم.. وصوّر القرآن من يغتاب الآخرين بمن يأكل لحم أخيه المسلم، مثلاً شرع حد السرقة لصيانة المال.

هذا مبدأ واحد من المبادئ التى وردت بخطبة الوداع، التى حفلت بمبادئ عظيمة تحقق للمسلمين عزتهم وكرامتهم وأمنهم، وتوفر لهم حياة سعيدة تتحقق فيها الأخوة الإسلامية التى تحرّم الدماء وتحرم الأموال، وتصون الأعراض..

استلهام السيرة

جمع الرسول صلى الله عليه وسلم الجلال والكمال معاً، وكان النموذج الأمثل للخلق الكريم.. وصفه القرآن فقال: «وإنك لعلّٰى خلق عظيم».. ووصفته السيدة عائشة بقولها: «كان خلقه القرآن». قلده الله النبوة، والرسالة، والإمامة والقيادة، وجعله القدوة المثلى وألزمنا بطاعته والتأسى به.. قال تعالى: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة».

ولقد أسرتُ شخصية الرسول عقول المفكرين والمبدعين على مدى أزمان طويلة وراحوا يتعاملون مع السيرة فى دأب شديد، كى يقفوا على مفاتيح الذات، وينابيع القيم، وأخلاق الرجولة، وإشراقات النبوة، وسماحة الصراع، وفيوضات العقل المبهر، ونسائم السلوك الفريد.

نقبوا ورصدوا، ثم رسموا صورة كاملة لحياة محمد صلى الله عليه وسلم منذ مولده بمكة -فيما يسمى بعام الفيل- وحتى وفاته، بعد أن أدى الأمانة، وأسس البنیان، وأشاع فى الأرجاء أنوار الإسلام.

شغف هؤلاء العاشقون للسيرة، بكل مرحلة من مراحل الحياة الجليلة والنبيلة، ونهلوا من نهرها الفياض، فأجادوا فى لغة الوصف، ودقة الرصد، ودرّس الأحداث، وأمانة النتائج، وإبراز القيم، وكشف معادن النفوس الكبيرة..

وغلب على الكتابة -قديمًا- تعدُّد الروايات، والجرح فى الرواة، والاستطراد فى الحدث، مما قد يجعلها صعبة -أحيانًا- على القارئ، تستنفد جهده، وصبره.

والمعالجة الأدبية الحديثة للسيرة النبوية تكسب النصّ ملامح جمالية متجددة، ومستحدثة.. كالسرد، والتحليل، والحوار، والمقارنة، والتخيل والابتكار، والمجاز.. فضلاً على منجزات فنون القول، كالحكى الروائى، ودراما المسرح، وتحليل الشخصية.

هذا النوع من الكتابة يمثل تحدياً للكاتب وقيداً عليه، وهو يرى العدد الوفير من الأعمال التى تناولت السيرة العطرة، ويدرك محاذير الكتابة فى هذا المجال، ويصبح اللجوء إلى الوسائل الفنية مخرجاً من القيد.

لكن.. يجب ألا تجور آليات الكتابة على الصدق التاريخى، فلا تمس الواقع أو تغاير من الحقائق، أو تفتتت على الوقائع، أو تجنح فى الأحكام أو تميل مع الهوى، أو تتال من الرجال المشهود لهم بالصدق ومحبة الرسول. فالكاتب - وهو يقترب من السيرة العطرة- عليه أن يلتزم بقيم الأدب الإسلامى ويسعى إلى أن يفيض العمل بالنور الذى يبدد ظلمة النفس، ويحيل صحراء الخوف إلى حدائق من الرضا والأمان.

ويجب أن نشير إلى أن النمط الكتابى القديم فى تناول السيرة، ليس هو الشكل الأدبى المطلوب.. فلكل زمان وسائله الفنية، ووسائطه الجمالية، ولا يعنى ذلك الانتقاص من قيمة هذه الأعمال.. إذ يبقى لها المرجعية التاريخية المهمة.. وهى قيمة أدبية وعلمية كبرى..

إن كتب الأحاديث -وهى من أهم مراجع السيرة- تحفل بقصص على درجة عالية من الإبهار.. تتناول الحدث، والشخصية، والمواقف.. وتتضمن العظة، والحكمة، وقيم الدين، مما يجعلها وسيلة من وسائل الدعوة تحمل تعاليم الإسلام وقيمه، وتربى المسلم التربية الإسلامية الصحيحة وتعدده الإعداد الدينى لمواجهة واقع الحياة.. ويستعد لها.

والرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ القصة أسلوباً من أساليب الدعوة.. وكتب الأحاديث حافلة بهذه القصص.. والكتاب منذُورُون إلى أن يدرسوا هذا النمط من الأدب النبوى الكريم ويستلهموا أحداثه، ومعانيه، فى أعمال أدبية..

فالإقبال على القصص، وعلى التزود بالسيرة العطرة، كفيل بذيوع الأعمال التى تستلهم السيرة النبوية، موضوعاً، ونسقاً فنياً، وقيماً دينية كبرى.

إننا كفيناك المسئولين

أهانته إحدى الصحف الدنماركية الرسول الكريم حين قامت بنشر رسوم تسخر منه صلى الله عليه وسلم في سبتمبر ٢٠٠٦. وظلت القضية مثارة هنا أو هناك دون أن تتخذ الأنظمة الإسلامية موقفا ما، كاستدعاء سفرائها أو تفعيل مقاطعة اقتصادية، انطلاقاً من أن للاقتصاد حكمه الأول في المواقف السياسية، لم يحدث أن توجهت دولة إسلامية نحو هذا الهدف إلى أن انفجر الغضب من جماهير المسلمين، فبادرت الأنظمة بامتطاء الغضبة الهادرة وبدأنا نقرأ أن دولة استدعت سفيرها أو أن أخرى دعت إلى المقاطعة الاقتصادية، ولم تبالى الدنمارك بأية احتجاجات، ولم تقدم اعتذاراً أو لوماً، أو عقاباً للصحيفة، وذلك بحجة حرية التعبير، وحرية الصحف وعدم التدخل في الشأن الصحفي.

ولم يغب عن الدول الأوروبية الاعتقاد السائد بأن الدول الإسلامية دول «قولية» تستخدم الحناجر والألسنة في صخب مدهش ثم لا تقوى على الفعل أو المواجهة ومن ثم تجاهلت الدنمارك الأمر وتمسكت بموقفها. وكان شيخ الأزهر قد رأى أن محمداً ميت، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا يجب الاساءة -إذن- إلى الأموات، ومثل هذا الرأي يوضح مدى التخاذل الذي أصاب الأزهر.. والغريب أننا قرأنا أن شيخ الأزهر قاد مظاهرة لإدانة ما حدث من إساءة للنبي صلى الله عليه وسلم.. والأمر طبعاً. فلماذا لا يركب الأزهر الموجة كما ركبتهما الأنظمة؟!

ولقد بحثت عن هؤلاء الذين صدعوا رءوسنا بحرية التعبير والدفاع عن الإبداع الجانح والأدباء المغرضين فلم أجد لهم صوتاً، كأنما دخلوا في سرداب مظلم وأغلقوا عليهم الباب.. فالأمر هذه المرة ضد ادعاءات الغرب في الحرية والإبداع، لقد صممت جوقة التغريب والتخريب والعمالة.. في الوقت الذي أدان فيه «كلينتون» ما حدث وتخوَّف أن يستبدل الغرب العداء للسامية.. بعداء الإسلام.

والمعضلة في الأمر ليست في التذرع بحرية التعبير وإنما هي الاساءة

المتعمدة إلى الإسلام ورموزه الكبرى وقيمه الثابتة، وهو نتاج للتعصب الكامن ضد الإسلام في التوجه الغربي، وهو ما يوضح موقف الدنمارك في موافقتها على الفعل المجرم وتمسكها بعدم الاعتذار لوقت طويل. يؤكد ذلك ما يمكن أن يحدث لو تجرأت صحيفة، أو قلم، أو صورة على انتهاك الثابت في المعتقد الإسرائيلي كالمحرقة، أو السامية، ذلك أن جماعات الضغط اليهودي والثقيل الإعلامي الإسرائيلي، والتواجد في أروقة صناعة القرار وتجهيزه سترغم أنظمة الغرب على الاعتذار الفوري، وسينبرى المسئول -لحظتئذ- مهرولاً ومرتجفاً ليعتذر بل ويحاكم من يتجرأ على هذا الفعل والمثير للدهشة أنه لا أحد في الغرب بقادر على انتقاد اليهود أو الإساءة إليهم؟ .. أليس هو التعصب ضد الإسلام إذن؟

إن مواقف الدول تجاه هذا الجنوح يختلف عن مواقف الأفراد، فعلاقات الدول تحكمها أنظمة ومواثيق عالمية تؤكد على حرية الاعتقاد وعدم ازدراء الأديان..

ومن قال إن التطاول على المقدسات يدخل في باب حرية التعبير؟ بل قد تختلف وجهات النظر في الأبحاث والدراسات العلمية تبعاً للمقدمات والهدف من البحث والمرجعية التاريخية.. والدينية، لكن يبقى للدرس العلمي مجالات الخلاف والرد.. أما السخرية والتحقيق والتهمك فهو دليل على تعصب ديني ممقوت.. موجّه -قصدياً- إلى الإسلام.

ولعلني أذكر القارئ الكريم كيف غضب الغرب، وهاجم السلام هجوماً عنيفاً حين حطمت «طالبان» تمثال بوذا.. واعتبرت ذلك ازدراءً للأديان.. وهو الآن -بالغربة- يدين غضبة المسلمين لنبيهم.. إن الغرب يضر في قلبه عداً حقيقياً للإسلام.. وعداؤه موصول من قديم وحتى الآن..

أما ما طال الرسول صلى الله عليه وسلم من إساءات فحديثه يطول.. قال تعالى: «إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون» (الحجر).

دعونا نأمل

لعل ما حدث أخيراً من إساءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يؤكد على أن الإسلام مستهدف. فالغرب يسمه بالجمود ويعتبره عائقاً أمام التحديث والتطور، ومن ثم يصبح التشويه للدين والرمز مبرراً في نظرهم. وهى رؤية عداثية استقرت في مرجعيات الغرب سنين طويلة، وقام الباحثون بدراساتها وتحليل أبعادها.. والرد عليها. ولكن المسكوت عنه في الأمر كله هو استخفاف الغرب بالأمة الإسلامية، فهي عالية على الغرب، تركت أمور حياتها إليه، ينظم، ويعلم، ويطعم ويحمى، حتى أصبحت تابعة. ومتى كان للتابع حق الاختلاف مع المتبوع؟ إنه يحرك هذه الأمة العريضة وفق مصالحه هو، وهى مصالح تتجدد عبر التاريخ، وإذا كان الاقتصاد في ظل العولة والهيمنة القطبية -كما يقولون- هو الذى يحكم السياسة، فإن الاستخفاف سيظل قائماً وإن غضبنا، أو دمرنا وأحرقنا.. فمثل هذه الحالات هبّأت تبدأ وتنتهى.

كيف تصبح الأمة الإسلامية مرهوبة الجانب، قادرة على المواجهة والعقاب وفرض احترام الغير لها.. دينا، ورموزاً، ونظام حياة؟.. وكيف تعمل على تحقيق ما يدعو إليه الدين الإسلامى من الحض على العلم والسعى إلى اكتسابه ولو كان فى أطراف العالم كالصين، كما ورد فى الحديث الشريف. وكذلك إشاعة قيمة العمل والجد فيه وتنظيم أموره. إن العلم والعمل فى ظل حضارة دينية مستتيرة يقفان وراء التقدم الذى نطمح إليه ويحقق لنا السيادة

والرفعة واحترام الذات. وليس هناك بديل، فالتقدم هو سبيل الحرية الحقيقية.

وما يتردد حول الحوار من أجل الابتعاد عن التصادم، ولإبراز القيم الحقيقية للآخر الغربى، فهى أقوال مرسلة تطرح فى أوقاتها، قد تفيد قليلا ولكن لا يعول عليها كثيرا. فليس مطلوباً من كل البشر أن يتعرفوا على الثوابت الدينية فى العقائد والأديان، ومن ثم تبجيلها واحترام قيمها.. لأن ذلك توجه مثالى، ولا يحقق الهدف المرجو. إن استبعاد النظرة الاستعلائية من الغرب مطلوب وقد يساهم فى تضيق الفجوة بين الاثنين، لكن ذلك مرهون باستنفار القوى الكامنة فى الأمة الإسلامية حتى تنهض، وتقوى، وتزيج هذا الضعف المزرى الذى هى عليه. إن الغضبة للدين وللنبي صلى الله عليه وسلم أمر مشروع وعظيم، وواجب، لكنه من الأوجب أن تتحول الغضبة إلى فعل مدروس وسعى لدعوى للارتقاء بالأمة الإسلامية إلى مصاف الدول الكبرى سياسيا واقتصاديا.. لحظتها فقط، سيتحول استخفاف الغرب إلى استرضاء كامل، وستعمل أجهزته الثقافية، والإعلامية على تحسين الصورة وتغيير النظرة، والابتعاد عن السخرية بالقيم الدينية، ورموزها الثوابت.

وإلى أن يحين ذلك.. فسيبقى الأمر على ما هو عليه.. كما يرد فى أدبيات النظم التى لا تراعى القانون.. وعلى المتضرر اللجوء إلى الأمم المتحدة. وأذكر فى هذا المقام ما حذر منه المخلصون لدينهم وأمتهم من الارتقاء فى أحضان الغرب والارتكان إلى ما يوفرونه من قيم الاستهلاك، ودعوتهم إلى الأخذ منهم بأسباب التقدم العلمى والمادى والبناء عليه.. ذلك أن سياسة الأمم مبنية على هذا البناء.

قال الشيخ محمد الغزالى -رحمه الله-: «لو قيل لكل شئ فى البلاد الإسلامية عدٌ من حيث جئت، لخشيتُ أن يمشى الناس عراة..» ويقول أيضاً فى كمد حقيقى «لا أدرى كيف نزعم الإيمان والجهاد ونحن نعانى من هذه الطفولة التى تجعل غيرنا يطعمنا ويداويننا، ويمدنا بالسلاح..»

دعونا نأمل أن يأتى يوم يكون فيه الاختلاف فى الدين والفكر والحضارة.. مدعاة إلى التكامل والبناء وليس إلى التناوب والهدم.

مع السيرة النبوية ومناقبه ومواقفه..

●● اختار الله محمداً للرسالة، واصطفاه على خلقه..

جاء مولده (صلى الله عليه وسلم) في عام الفيل، ذلك العام الذي ردّ الله فيه كيد أبرهة حين أراد هدم الكعبة، فأرسل الله إليه طيراً أبابيل «ترميهم بحجارة من سجيل..» وازدهت ليلة الثاني عشر من ربيع الأول، وتاهت على الزمان حيث شُرُفت بمولد المصطفى..

تولى الله سبحانه رعاية رسوله، فاصطنعه لنفسه وخلصه من شوائب الدنيا وزخرفها. وجاء الميلاد النبوي رمزاً للتحرر من الوثنية وتأكيد الإيمان بالله واحداً لا شريك له. وبميلاده «صلى الله عليه وسلم» انجلي الظلم وتجلي العدل.. كان نوراً بين يدي الله، فقذف به في الأصلاب الكريمة، والأرحام الطاهرة، قال ابن عباس عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: (لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الكريمة، والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من أبوين لم يلتقيا على سفاح قط).

لقد ادّخر النور الذي تجلى في عبدالله بن عبدالمطلب لأفضل امرأة في قريش نسباً «فتزوجها» وحملت برسول الله.

استقبلت آمنة هذا النور.. واستراحت في حمله، وولادته..

ولقد ورد عن أم النبي أنها قالت: «لما ولدت خرج منى نور أضاءت له قصور الشام».

.. توفى والده قبل مولده.. فعاش يتيماً فى كفالة جده عبدالمطلب، وأرضعته حليلة السعدية، وأنعم الله على بنى سعد بالخير والنماء، وكان محمد سبباً فى النعيم الذى حلّ بالبادية.

وشهد المكان إرهابات توحى بالاصطفاء الالهى.. كشق الصدر الذى هو رمز للطهر والعفة والنقاء، وللشارة بالنبوة.

وفى سن السادسة من العمر ماتت آمنة بنت وهب أم الرسول أثناء عودتها من المدينة.. وكفله عبدالمطلب، وشمله بالرعاية والحماية.. وكان يقول: (دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأناً)..



لقد كانت حياة محمد مثلاً للخلق الكريم..

ولقد شمله الله بالرعاية، والاصطفاء، والحفظ، فشب كريماً، صاحب مروءة، حليماً، نقى السريرة، نائياً عن مواطن الشبهات، وضئ الوجه، رهيف القلب، ندى اللسان.

كان عنواناً للفضائل..

عصمه الله من أدران الجاهلية، فلم تدنس النفس بما تعود عليه شباب الجاهلية، الذين كانوا يرتادون بيوت اللهو.. عابثين ومسامرين وشاربى خمر.. ابتعد محمد عن هذا الجو الموبوء، وعزف عن كل ما يشين النفس ويحط من قدرها.

تحدث رسول الله - فيما روى عنه - أنه ما همَّ بشئ مما كان يحدث فى الجاهلية إلا وحال الله بينه وبين ذلك. حين أراد الذهاب - وهو يرمى الغنم - إلى مكة ليسمر مع شبابها.. سمع عزفاً يأتى من بيت قريب. فجلس يستمع.. لكن (ضرب الله على أذنى فتمت فما أيقظنى إلا حرُّ الشمس).



لم ينقطع محمد «صلى الله عليه وسلم» عن الحياة، ولم يخاصم مباهاجها المشروعة، فهو إنسان.. جبله الله على الخير وكريم الأخلاق، وهو الشاب

الذى تحدثه نفسه بأحاديث الشباب.. لكنه المصطفى للرسالة.. فعصمه الله من الخطأ الأخلاقى ومن الانقياد إلى رغبات النفس التى توقع الضرر بصاحبها.

وعرف محمد - قبل البعثة - الميل إلى التفكير والتدبر ونقاء العقيدة، فلم يسجد لصنم، أو يلجأ إلى كاهن، أو عرّاف، أو يُقسم بآلهة قومه.. فاكسب بذلك هالة من الوقار أحاطت به شاباً ورجلاً.. الوقار الذى يستدعى من الآخرين الاحترام والتجلة والتقدير.. كما عرف عنه سماحة الطبع، وعفة اللسان، مما جعل قومه يقدرونه ويحبونه، فأطلقوا عليه صفات جميلة.. مثل صفة الأمين التى أضحت لقباً عليه.



سارت الألسنة تتحدث عن صفات الكمال التى يتصف بها محمد.. الأمر الذى أثار إعجاب خديجة ذات الشرف والمال والجاه، امرأة فاضلة على رأس قومها، تعمل بالتجارة وتستخدم من يعينها فى أمور مالها وتجاريتها.. واستدعت محمداً.. فعمل معها وأدى واجبه فى أمانة وصدق.. ووقع محمد فى قلبها.. وحكى لها (ميسرة) ما رآه فى رحلاته مع محمد، وما لمسه فيه من صدق، وطهر، ونبل مما أدى إلى نمو المال وازدياده، وهو ما جعل خديجة.. تعرض نفسها عليه كزوجة.. فتزوجها وعمره ٢٥ عاماً وعمرها أربعون عاماً.. كانت أول امرأة يتزوجها ولم يتزوج عليها حتى ماتت.. وكانت خديجة - رضى الله عنها - لرسول الله السند والحماية.. آمنت به وصدقته وواسته..

كان صلى الله عليه وسلم دائم الشاء عليها، يذكرها دائماً حتى غارت منها عائشة.. فقالت له: (لقد كانت عجوزاً.. أبذلك الله خيراً منها..) ويرد عليها ويقول قولته الجامعة التى تصحح الأمور وتعيدها إلى سوائها الصحيح، وتعطى للناس أقدارها.. قال «صلى الله عليه وسلم» عن خديجة: (آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى حين كذبنى الناس، ورزقنى الله منها الولد..). ولقد وصفت السيدة خديجة رضى الله عنها رسول الله فقالت انه (يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويُعين على نوائب الحق..).



مع الأيام أخذت نفسه - صلى الله عليه وسلم - تميل إلى العزلة، وتهفو إلى

الخلاء، توقفاً إلى الصفاء النفسى والتدبر فى آيات الله. وكانت خلوته انطلاقة روحية إلى الخالق جلّ وعلا.. فتهيأت النفس من ثم إلى تلقى الرسالة..

ولقد كان اختياره لذلك نوعاً من الاصطفاء وطرفاً من تدبير الله. جاءت هذه العزلة قبل التكليف بثلاث سنوات.

وعرف محمد «صلى الله عليه وسلم» الطريق إلى غار حراء فى جبل النور، الذى يبعد عن مكة قدر ميلين.. قضى فيه وقته فى التأمل والعبادة.. ظل يتردد عليه طوال هذه السنوات الثلاث، حتى إذ اكتمل الأربعين عاماً نزل جبريل بالوحى فى رمضان.. (إننا أنزلناه فى ليلة القدر..). وحمل محمد الرسالة وارتفع براية الإسلام، ونشر مبادئه، وبعث الأمل فى نفوس المستضعفين من القوم.. فأقبلوا عليه.. وآمنوا به. شرح تعاليم الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحل الطيبات وحرم الخبائث، ووضع المنهاج القويم للدين والسلوك.. قال تعالى: «يا أيها المدثر.. قم فأنذر..» نداء علوى ينتدب الرسول لأمر جلل، ودعوة للقيام بمهام الدين الجديد وقام الرسول بالدعوة أكثر من عشرين عاماً، يحمل عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، عبء الكفاح والجهاد..

☆☆☆

بدأ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الدعوة إلى الدين الجديد، فدعا قومه الأقربين إلى الإيمان به وبرسالته، وكان من أوائل الذين آمنوا السيدة خديجة، وزيد بن حارثة وعلى بن أبى طالب وأبو بكر الصديق.. وغيرهم.. ولقى محمد «صلى الله عليه وسلم» فى سبيل الدعوة عنفاً شديداً من قريش، راحوا يسخرون منه ويشوهون تعاليمه، ويثيرون حوله الشبهات.. قالوا عن القرآن (أساطير الأولين) وقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون..).

.. وحين لم يفلحوا فى إثراء الرسول عن دعوته لجأوا إلى المساومات فعرضوا على محمد «صلى الله عليه وسلم» أن يقتسموا العبادة بين ديانتهم

والدين الجديد . وسجل القرآن هذا الموقف وأدانه فى قوله تعالى: (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون..).

.. وانفجرت مكة بالغضب واستكرت الجهر بضلالهم، وبعبادة الأصنام وقامت قريش لتواجه الدعوة الجديدة فتطور الأمور واشتد اضطهادهم لرسول الله، ولأن آمن معه، وحاربوا الدين الجديد، وعذبوا المؤمنين به.. وعارضوا القرآن بأساطير الأولين.

.. وحين اشتد العذاب هاجر عدد من الصحابة إلى الحبشة، وعلمت قريش فسعت للنيل منهم لدى النجاشى.. لكنه أمنهم وحماهم. واشتدت قريش فى عداوتها وأثارت الفتن وضغطت على أهل الرسول كأبى طالب.. كان عقبة بن أبى معيط يضع بقايا الجزور على الرسول وهو ساجد،.. وكانت فاطمة تطرحه عن ظهره «صلى الله عليه وسلم».. وكان أمية بن خلف يسىء إلى الرسول ويهمزه ويلمزه.. وقال تعالى فى هذا الموقف وغيره (ويل لكل همزة لمزة..) ولقى «صلى الله عليه وسلم» من عمه أبى لهب أذى كثيراً.. وكانت زوجته تحمل الشوك وتضعه فى طريقه وأمام بيته وسجل القرآن هذا السلوك المتدنئ.. من أبى لهب وزوجته أم جميل فى سورة المسد.. قال تعالى: (.. وامراته حمالة الحطب، فى جيدها حبل من مسد).

.. وحين عرض رسول الله نفسه - ودعوتة - على القبائل لحمايته من أذى قريش كان البعض منهم يردّه رداً جميلاً، والبعض يغفل له.. ويوعزون إلى السفهاء أن يسيئوا إليه وينالوا منه.. وكان يقول مبتهلاً إلى الله: (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون..).

.. وأدركت قريش أنها فشلت فى مواجهة الدين الجديد، فقررت التخلص من محمد «صلى الله عليه وسلم» خاصة أنها رأت ازدياد الدخول فى الإسلام.. بعد إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبدالمطلب.

.. وصبر رسول الله والمسلمون معه صبراً جميلاً على الشدائد، وتواصل نزول القرآن يحثهم على المجاهدة، والتجلى، ويبشرهم بنصر الله، وبهلاك الكفرة والظالمين.. وتلقى الصحابة وغيرهم من النبى دروساً فى التربية ساهمت فى سمو الروح، وعمق الإيمان. وبشرهم القرآن بالنصر والفلاح. قال تعالى: (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله).

☆☆☆

اجتمع عتاة قريش وتآمروا للتخلص من محمد «صلى الله عليه وسلم» مرة واحدة، فيتفرق دمه بين القبائل. ومع استعدادهم لتنفيذ الأمر خرج عليهم رسول الله وفي يده حفنة من الرمال وذراًها في وجوههم وعلى رؤوسهم، فأخذت أبصارهم وغشيهم النعاس. قال تعالى: (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) - يس - وفي الغار اجتمع مع أبي بكر الصديق، وكُنّا فيه ثلاث ليالٍ حتى تمكنا من الهجرة..

واستقبلته يثرب.. الأنصار والمهاجرون.. ودعا الله سبحانه قائلاً: (اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد..).

عظم شأن الرسول في المدينة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وبنى الرسول دولة الإسلام.. وشهد المسلمون معارك وغزوات مع الأعداء.. وتعددت الفتوحات والانتصارات..

وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» رحيماً.. ومتسامحاً..

والتسامح مدعاة إلى تألف القلوب وتقريب النفوس، وكان (صلى الله عليه وسلم) نبراساً يُهتدى به في مكارم الأخلاق، وما خَيْرُ بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

حين فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، خاطب قريش التي ناصبته العداء، وأجبرته والمسلمين على الهجرة.. قال - وقد تمكن منهم، وانتصر عليهم وفتح مكة.. وعاد إلى أحب مكان إليه - (يا معشر قريش.. ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم.. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء..).

وأمام تلك السماحة.. والرحمة المهداة بايعة قريش الرسول ودخل الناس في الدين أفواجاً..

ولأنه يعرف كيف يطيب النفوس ويعالج أدواءها، أمر المنادى بمكة أن يقول (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. ففتح بهذا التسامح باب الرجاء مما جعل أبا سفيان يسلم طائعاً مختاراً).

ولقد أبدى تسامحاً كبيراً تجاه بني ثقيف، لقد أذوه قبل الهجرة وأغروا سفهاءهم به، فحصبوه بالحجارة، مما جعله يلجأ إلى بستان يتخفى فيه ويدعو ربه قائلاً: (إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي..).

وأسلمت ثقيف، وذهبت وفودهم إلى المدينة لمعاهدة الرسول، واستقبلهم «صلى الله عليه وسلم» استقبالا حسناً، وراح يعلمهم ويرشدهم ويحسن وفادتهم..



أقام الرسول دولة الإسلام فى المدينة، ونظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم كاليهود وذلك لتوفير الأمن والسلام.. وكان اليهود فى المدينة وفى الجوار.. وكانوا يبتنون العداوة للإسلام.. وعقد النبى «صلى الله عليه وسلم» معهم معاهدة.. فأصبحوا بذلك أحراراً فى الدين والمال.. ولم يلجأ إلى إبعادهم أو مصادرة أموالهم.. بل كان يشعرهم بقرية منهم.. فصام صومهم.. واستقبلت بيت المقدس صلاته.. لكنه لقى منهم أذى شديداً، فلقد أشاعوا الأكاذيب، بل سعى البعض كعبدالله بن سبأ إلى إشاعة الفتنة حين تحدث بحديث الإفك عن السيدة عائشة رضى الله عنها..

ولقد أنزل الله بشأن هذا الأمر ما يدحض الإفك ويبرىء السيدة عائشة قال تعالى: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم)..

وتصور البعض أن الرسول قاتل هذا الرجل الذى أشاع هذا الأمر الكريه.. لكنه «صلى الله عليه وسلم» قال فى تسامح: (لا نقتله بل نترفق به..).

.. واستطاع الرسول أن يقيم دولة تقوم على مبادئ الأخلاق والأخوة الإنسانية، نابذة الجهل والعرق، والتعصب، فالمؤمنون إخوة، ولا فرق لعربى على عجمى إلا بالتقوى. قال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) - الحجرات - ولقد أمضى الرسول من أجل تحقيق هذه الأهداف سنين طويلة، فتجحت الدعوة ودانت لها الجزيرة العربية وما حولها، وتعالى أصوات التوحيد، وانطلق المسلمون يتلون آيات الله ويسيرون أحكامه.. وتحققت الوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية. وخلصت روح البشر من الوهم والخرافة، والظلم والطغيان..



حين تمت أمور الرسالة وبناء المجتمع الجديد.. قرر الرسول «صلى الله عليه وسلم» أن يحج حجة الوداع فى العام العاشر من الهجرة.. وخطب فى

هذه المناسبة، وذكر المسلمين بمبادئ الإسلام القويمة.. جاء فيها.. (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم.. وإن ربا الجاهلية موضوع.. اتقوا الله فى النساء.. ولقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا.. كتاب الله وسنتى..)

ونزل قوله تعالى فى هذه المناسبة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) (المائدة ٣)



وفى أوائل العام الحادى عشر من الهجرة (صفر) مرض رسول الله ثم فاضت روحه الشريفة..



تحدث القرآن الكريم عن محمد صلى الله عليه وسلم.. صفاته، ومواقفه ومكارم أخلاقه، واصطفائه ومواقفه.. فى ومضات مشرقة، وبارقة. فهو - صلى الله عليه وسلم - المثل الأعلى والأسوة الحسنة.. كان خلقه، القرآن.. أدبه ربه فأحسن تأديبه، وكان على خلق عظيم. قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) الأحزاب ٣١.

.. وواكب القرآن الكريم مراحل الدعوة، فأمر الله نبيه أن يدعو الناس إلى الدين الجديد وأن يجهر بها، وألا يتوانى عن الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الدين الجديد.

قال تعالى: (يا أيها المدثر قم فأنذر) - المدثر -.

وتوالت الإشارات والإرشادات لتوضح الطريق وتكشف النفوس وتحدد المواقف وتدعو إلى الصبر (واصبر على ما يقولون) - المزمل - واقتضت التربية الإلهية أن ينبهه مولاه إلى الخطر الكامن وراء المظهر الخادع.. ومراعاة البشر فى حسن المعاملة والرفق بهم.. لقد صنع محمداً على عينه واصطفاه، ورباه. وأجمل القرآن الكريم شمائله الرقيقة وصفاته المثالية فى قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء ١٠٧.

.. كما حفل القرآن بآيات تشير إلى مواقف متعددة للرسول فى بيته ومع زوجاته، قال تعالى: (يا أيها النبى إنما أحلنا لك أزواجك اللاتى أتيت أجورهن، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) - الأحزاب.

.. كان بيت رسول الله ملاصقاً للمسجد الذى يؤمه المسلمون للصلاة، وكانوا يفتدون إلى بيت الرسول ابتغاء الهداية والموعظة الحسنة، وكانوا يفعلون ذلك أحياناً بلا استئذان مما كان يؤذى النبى .. فلابىوت حرمة .. وكانت زوجات النبى يتضررن من ذلك.

ونزلت الآيات لترسم السلوك القويم والمنهاج السليم. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دُعيتم فادخلوا...) - الأحزاب.

وضمن هذا المنهج نزلت الآيات التى تدعو إلى التأدب مع رسول الله وترشد المؤمنين إلى تهذيب الطباع والسلوك الإنسانى والأداء التربوى الرفيع .. وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» .. فقالت فى عبارة موجزة .. ودالة:

«كان خلقه القرآن».

الفهرس

الموضوع

صفحة

٥	مقدمة
	الفصل الأول
٩	رمضان .. مشاهد ومواقف
١١	شهر رمضان.. ومشاهد من الحياة
٢٥	حدث فى رمضان .. غزوة بدر الكبرى
٣٢	عيد الفطر رمزاً للتوحد الروحى والإنسانى
٣٧	رمضان .. والتلفزيون
٣٩	التساهل فى قضايا الدين
	الفصل الثانى
٤١	على مائدة القرآن
٤٣	قصص القرآن.. والتاثير النفسى
٥١	من السرد القصصى فى القرآن الكريم .. نوح نموذجاً
٥٧	الرمز فى قصص القرآن
٦٣	حديث عن النفس
٦٦	الدعوة إلى كريم الاخلاق
٧٠	بين التاريخ والدين
٧٣	الاداء التصويرى ودلالة الالفاظ
٨٣	الصورة البيانية والاداء التصويرى القصصى
	الفصل الثالث
٩١	وقفات مع الفكر الإسلامى
٩٣	تقاء العقيدة
٩٥	مبدأ الشورى فى الإسلام
٩٩	الإسلام وحقوق الإنسان
١٠١	أعمدة العلم الثلاثة
١٠٦	الإسلام وقضايا التنوير
١١١	الإسلام.. حوار .. لاصراع
١١٦	الحدافة فى ميزان الإسلام
١٢٢	متقفون وأعداء
١٢٤	النشر الأمريكى
١٢٩	الدين والحرب فى زمن بوش
	الفصل الرابع
١٣٥	قبسات نبوية
١٣٧	فى ذكرى المصطفى .. (صلى الله عليه وسلم)
١٤٠	اصطفاء المكان والإنسان
١٤٥	الأسوة الحسنة
١٤٨	الرحمة المهداة
١٥٠	حول الإسراء والمعراج
١٥٨	خطبة الوداع
١٦٠	استلهاام السيرة
١٦٢	«إنا كفيئناك المستهزئين»
١٦٤	دعونا نامل
١٦٦	مع السيرة النبوية ومضات.. ومواقف

رقم الإيداع : ٥٦٣٥ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي : 3-977-236-667-I.S.B.N

طبع بمطابع دار  الجامعية للصحافة

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الشمس ١٠ جنيهات